الإعجاز بالنظم
في
آيات الوصية
في القرآن الكريم

إعداد
د / فرج محمد فرج أحمد
مدرس البلاغة والنقد
كلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنين بقنا

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العاملين ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين .

وبعد

فإن القرآن الكريم معجزة الله الخالدة أبد الآبدين ، ولايزال درسه، والوقوف على عجائب نظمه، وأسرار سبكه أمل كل متشوف مخلص ، يتبرك بالوقوف بين يدى النص الكريم يستمطر به الرحمات، و يبيض به وجهه يوم تبيض وجوه وتسود وجوه، يقرأ ويرقا فى الآخره، وفى الأولى يختال تيها وعجبا بغير أشر ولا بطر بما أوتى من فصاحة أكسبتها اياه دوام النظر فى الذكر الحكيم .

وللراغب فى رقة الأسلوب والهدى فى حوالك الدهم ، والحظوة بشرف الانتساب إلى جند الله الذين حملوا أقلامهم سهاما صائبة فى وجه المارقين ، والأفاكين، والمتعالمين والمنتسبين إلى الإسلام زورا وبهتانا .

وأنى للمخلصين أن يسلموا فكلموا ولم يتكلموا، وذبوا ولم يتذبذبوا، وانبرت أقلامهم رعداً قاصفاً ، وسيلا جارفا يذهب بتأويلات المبطلين ، وغلو الغالين ،فجاء كلامهم كبرد الماء على الظما، يشفى به الله صدور قوم مؤمنين ، ويذهب غيظ قلوبهم ، ومن ثم على مدار الأعصار المتتاليه قد رأينا أن قد أضاء القرآن الكريم

جنبات الأرض، وآخرس ببديع نظمه المتفيهقين ، وأرغم أنوف المتشادقين ، وأعجز ببلاغته لسن العرب المقاويل ، فغادروا ميدان البحث فى إعجاز القرآن نكس الأبصار يسابقهم خزى الدنيا وعذاب الآخرة ، تصيح بين جوانبهم قمأة الانهزام وإن مكنوا وكانت لهم دولة ، فقد ولوا ووجوه الأرض تلعنهم .

بينما نجد أناسا أقبلوا على كتاب الله بكليتهم ، لاهم لهم إلا المنافحة عنه متناولين أخطر القضايا وأشهرها وأعقدها وأبعدها مرمى ، إذ إنها قد ضربت بجذور بعيدة فى تاريخ البحث البلاغى .

ولما كنت من الراغبين فى نيل شرف المشاركة فى هذا الميدان عمدت إلى تناول مسألة مهمة تناولها القرآن الكريم وفرضها على الخلق؛ لآن فيها هديهم وهداهم، وراحهم وراحتهم، قضية أرسلها الله لعباده بأمره على لسان أصفيائه، ومرة بأمره تلك هى «**الوصية فى القرآن الكريم**»، رأيت فيها صلاح الخلق لو أنهم انقادوا لأوامر الحق .

وعليه حملت قلمى ، وأخذت فى تجلية بعض الأسرار البلاغية التى تزينها هذه الآيات ولكم حاولت كبح جماح القلم ليكون كلامى قصدا، بإيجاز غير مخل ، ولا إ إطناب ممل وقد صدرت البحث بتمهيد موجز عن الإعجاز والأقوال فيه .

وأتبعت ذلك بالنظم نشأته وتطوره والمختار منه .

وأشفعت ذلك بمسك الختام بدراسة تطبيقية لآيات الوصية أتناول بعضا من بلاغتها معنيا بالإعجاز بالنظم فيها، ثم بخاتمة كانت مجرد لمحة بعد التطبيق الى المذهب المختار فى النظم .

وبعـــد

فإنى لأسال الله تعالى أن يجعل هذا العمل نافعا مرضيا عنده سبحانه ، ثم عند المخلصين من عباده الذين اتخذوا كتاب الله منهجا وسلوكا .

كما أساله سبحانه أن يهدى به قلوبا غلفا، وآذانا صما ، وأعينا عميا ممن لعبت بهم الآهواء واتخذوا هذا القرآن مهجورا، ووضعوه وراءهم ظهريا يبغون الهدى فى غيره – هداهم الله – .

وذلك بما حاولنا بنية صادقة تناول أوجه الإعجاز البلاغى بالنظم فى هذه الآيات .

والله من وراء القصد والهادى إلى سواء السبيل

تمهيد
فى الإعجاز القرآنى

الإعجاز فى اللغة : « من عجز أعجاز، أعجزه الشيء : فاته ، وفلانا وجده عاجزا، وصيره عاجزا ، والتعجيز : التثبيط والنسبة إلى العجز، ومعجزة النبى - ﷺ - ما أعجز به الخصم عن التحدى، والهاء للمبالغة [١]، ومنه : « لاتلثوا بدار معجزة، وطلبته فأعجز، وعاجزا إذا سبق فلم يدرك» [٢] والعجز أصله التأخر عن الشيء ..... وأعجزت فلانا وعجزته وعاجزته : جعلته عاجزا » . [٣]

الإعجاز فى الاصطلاح (المعجزة):

ومن الإعجاز المعجزة وهى : « أمر خارق للعادة مقرون بالتحدى سالم عن المعارضة » : [٤]

وعليه فإن أشهر معانى الإعجاز هو التحدى، وهذا هو المقصود فى إعجاز القرآن الكريم، وقد لخص الرافعى المقصود بالتحدى فقال :

---

(١) القاموس المحيط (عجز) - ط : الحلبى بمصر ، نشر دار الجبل بيروت - .

(٢) أساس البلاغة / (عجز) - ط : دار صادر . بيروت - .

(٣) مفردات الراغب/ ٣٦١ (عجز) - ط : العملية . بيروت - .

(٤) الإتقان للسيوطى ١٠٠١/٢ - ط : دار ابن كثير دمشق وبيروت - .

« وإنما الإعجاز شيئان :

ضعف القدرة الإنسانية فى محاولة المعجزة .

ومزاولته على شدة الإنسان واتصال عنايته .

ثم استمر هذا الضعف على تراخى الزمن وتقدمه، فكأن العالم كله فى العجز إنسان واحد ليس له غير مدته المحدودة بالغة مابلغت، فيصير من الأمر المعجز إلى مايشبه فى الرأى مقابله أطول الناس عمرا بالدهر على مداه كله » . (١)

وقد كانت معجزات الأمم السابقة حسية يرونها، وإن دل ذلك ، فإنما يدل على «بلادتهم وقلة بصيرتهم - بينمانجد معجزة هذه الأمة عقلية ؛ لفرط ذكائهم ، وكمال أفهامهم، ولأن هذه الشريعة لما كانت باقية على صفحات الدهر إلى يوم القيامة خصت بالمعجزة العقلية الباقية؛ ليراها ذوو البصائر ،كما قال - ﷺ وسلم - ﴿ما من الأنبياء نبى إلا أعطى ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلى ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا(٢)﴾. (٣)

---

(١) إعجاز القرآن للرافعى/١٣٩ - ط : دار الكتاب العربى، بيروت . لبنان - .

(٢) صحيح البخارى - كتاب فضائل القرآن ، باب كيف نزول الوحى ، حديث رقم /٤٦٩٦ .

(٣) الإتقان للسيوطى ١٠٠١/٢ .

وقد تناول ابن حجر هذا الكلام المحفوف بالعصمة ، من بليغ قول سيد الأمة ، فبين الأوجه التى يحتملها حديث ﴿ما من الأنبياء نبى .... الخ :

الأول : قيل : إن معناه أن معجزات الأنبياء انقرضت بانقراض أعصارهم ، فلم يشاهدها إلا من حضرها، ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة ، وخرقه للعادة فى أسلوبه وبلاغته وإخباره بالمغيبات، فلا يمر عصر من الأعصار إلا ويظهر فيه شىء مما أخبر به أنه سيكون ، يدل على صحة دعواه .

الثانى : قيل المعنى أن المعجزات الواضحة الماضية كانت حسية تشاهد بالأبصار كناقة صالح ، وعصا موسى ، ومعجزة القرآن تشاهد بالبصيرة، فيكون من يتبعه لأجلها أكثر ؛ لأن الذى يشاهد بعين الرأس ينقرض بانقراض مشاهده والذى يشاهد بعين العقل باق، يشاهده كل من جاء بعد الأول مستمرا .

قال ابن حجر : ويمكن نظم القولين فى كلام واحد فإن محصلهما لاينافى بعضه بعضا» » . (١)

إعجـــاز القـــرآن :

إن إعجاز القرآن لدى الموقنين أمر ثابت بداهة لايحتاج إلى بينة تثبت صحة ذلك ، فإنه ولا يزال القول الذى لايقرب منه قول ، فيوضاته تترى، قطوفه دانية لاينفد معينه مع كثرة الواردين عليه،

---

(١) ينظر فتح البارى ٧/٩ والاتقان ١٠٠٢/٢ .

فهو القول الذى لا تنقضى عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد، لايمله الأتقياء ، ولا يشبع منه العلماء ، يدرك عظمته أهله :

﴿ قُلْ آمنُوا به أَوْ لا تُؤْمنُوا إِنَّ الَّذينَ أُوتُوا الْعلْمَ من قَبْله إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخرُّونَ للأَذْقَان سُجَّدًا ويَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً وَيَخرُّونَ للأَذْقَان يَبْكُونَ ويَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾(١) ﴿ وممَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ . (٢)

إن القرآن الكريم كلام الله أحد منظومات الإعجاز الإلهى المتعددة التى وقف الإنسان أمامها موقنا بتمام عجزه وقلة حيلته، «وما أشبه القرآن الكريم فى تركيب إعجازه ، وإعجاز تركيبه بصورة كلامية من نظام هذا الكون الذى اكتنفه العلماء من كل جهة، وتعاوروه من كل ناحية ، واخلقوا جوانبه بحثا وتفتيشًا، ثم هو بعد لايزال عندهم على ذلك خلقا جديدا، ومراما بعيداً، وصعبا شديدا، إنما بلغوا منه إذ بلغوا منه نزرا تهيأت لضعفه أسبابه، وقليلا عرف لقلته حسابه، وبقى وراء ذلك من الأمر المتعذر الذى وقفت عنده الأعذار ، والابتغاء المعجز الذى انحط عنده قدر الإنسان؛ لأنه مما سمحت به الأقدار » . (٣)

---

(١) الإسراء /١٠٧:١٠٩ .

(٢) مريم بعض الآيه ٥٨ .

(٣) إعجاز القرآن للرافعى/١٤٠ .

وإنه لا يزال قول الله المعجز مخبرا عليما ، وآمرا حكيما ، يندد بعجزهم : ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[1] وقد ظن فريق أن التحدى إنما هو للإنس دون الجن؛ لأن الجن ليسوا من أهل اللسان العربى الذى جاء القرآن على أساليبه، وإنما ذكروا فى قوله: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ﴾ ، تعظيماً لإعجازه ؛ لأن الهيئة الاجتماعية لها من القوة ماليس للأفراد، فإذا فرض اجتماع جميع الإنس والجن ، وظاهر بعضهم بعضا، وعجزوا عن المعارضة كان الفريق الواحد أعجز »[2] وفى النفس شىء من هذه المقولة ؛ لأن صرف الجن لاستماع القرآن وشهادتهم بأنه القول العجب لا يكون إلا عن معرفة، وقد ذكر الأدباء أن للجن شعرا، وأن كل شاعر كان له نصير من الجن ، فلا مانع إذا من اشتراك الجن مع الإنس وتكون الآية قد جاءت على التعميم ، كما يقال : لو اجتمع أهل السموات والأرض ، وأيضا لأن المتحدون بإعجاز القرآن كانوا يزعمون أن الجن يقدرون على الأعمال العظيمة » .[3]

---

(١) الإسراء /٨٨ .

(٢) البرهان للزركشى ١١١/٢ – ت : محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط : دار الجيل بيروت ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨م – .

(٣) التحرر والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٠٣/٢٥ – طبعه بدون تاريخ – .

أقوال العلماء فى إعجاز القرآن الكريم

لكن الذين ارتابت قلوبهم ، وأشباههم من الذين لا يزالون فى ريبهم يترددون ، لما أثاروا الشكوك فى بعض آى القرآن يحاول تعفير وجه الشمس وأنى لهم ، يبذلون فى ذلك أغلى ماعندهم، وإن ماينفقونه سيكون عليهم حسرة ثم يغلبون- وقد كان .

فقد انبرى قوم - **نضر الله وجوههم** - مذ أثيرت مثل هذه الشبهات يدافعون عن كتاب الله - **والله غالب** - وإلى يومنا ، وإن اختلفت وجهات نظرهم فى الوجه المعجز للذكر الحكيم فإننا لنسأل الله لهم المغفرة، ونجمل بعض هذه الوجوه أولا ، ثم نتبع ببعض تفصيل حتى نصل بك إلى المختار الذى تطمئن إليه نفوسنا .

قام العلامة الزركشى والسيوطى بجمع الأقوال التى قيلت فى بيان وجه إعجاز القرآن الكريم ، وبينا أن العلماء اختلفوا فيها على أقوال :

أحدها : وهو قول النظام : « إن الله صرف العرب عن معارضته، وسلب عقولهم، وكان مقدورا لهم، لكن عاقهم أمر خارجى، فسار كسائر المعجزات» (١) وقد أبطل الباقلانى هذا القول وبين فساده . (٢)

---

(١) البرهان ٢/٩٣ : ٩٤ .

(٢) إعجاز القرآن للباقلانى / ٢٩ : ٣١ - ت : السيد أحمد صقر - ط : دار المعارف مصر - .

الثانى : أن وجه الإعجاز راجع إلى التأليف الخاص به ، لامطلق التأليف، وهو بأن اعتدلت مفرداته تركيبا وزنه ، وعلت مركباته معنى بأن يوقع كل فن فى مرتبته العليا فى اللفظ والمعنى .

الثالث : ما فيه من الإخبار عن الغيوب المستقبلة .

الرابع : ماتضمن من إخباره عن قصص الأولين وسائر المتقدمين حكاية من شاهدها وحضرها .

الخامس : إخباره عن الضمائر من غير أن يظهر ذلك منهم بقول أو فعل .

السادس : وصححه ابن عطية [1]، وقال : إنه الذى عليه الجمهور والحذاق – وهو الصحيح فى نفسه – وأن التحدى إنما وقع بنظمه، وصحة معاينه، وتوالى فصاحة ألفاظه، ووجه إعجازه أن الله قد أحاط بكل شىء علما، وأحاط بالكلام كله علما، فإذا ترتبت اللفظة من القرآن علم بإحاطته أى لفظة تصلح أن تلى الأولى، ويتبين المعنى بعد المعنى، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره، والبشر معهم الجهل والنسيان والذهول، ومعلوم بالضرورة أن أحدا من البشر لايحيط بذلك وبهذا جاء نظم القرآن فى الغاية القصوى من الفصاحة .

---

(١) المحرر الوجيز مقدمة ٢٧٨ : ٢٨٠ – ط : المجلس الأعلى بفاس بالمغرب – .

وبهذا النطق يبطل قول من قال : إن العرب كان فى قدرتها الإتيان بمثله، فلما جاءهم النبى ﷺ صرفوا عن ذلك وعجزوا .

السابع : أن وجه الإعجاز الفصاحة وغرابة الأسلوب ، والسلامة من جميع العيوب وغير ذلك مقترنا بالتحدى . (١)

الثامن : مافيه من النظم والتأليف والترصيف ، وأنه خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد فى كلام العرب ، ومباين لأساليب خطاباتهم (٢) – وهو اختيار الباقلانى – .

ولسنا مع الباقلانى فيما ذهب إليه من إقصاء البديع وتنحيته من النظم ، وأنه ليس داخلا فى حد الإعجاز؛ لأنه يمكن تعلمه وذلك لما قال : « ولا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن من أصناف البديع التى ادعوها فى الشعر ؛ لأنه ليس مما يخرق العادة ، بل يمكن استدراكه بالتعلم والتدريب والتصنع له » (٣) وأى من الأساليب أو الصور البيانية لا يمكن تعلمها ! حتى يجعل البديع دبر الركب، وما رأى الباقلانى فى الفواصل التى جاء بها القرآن الكريم ، والهراء الذى قاله به مسيلمة ، أليست السور المليئة بالسجع والجناس والطباق وغير ذلك من الفنون البديعية وهى السمة الغالبة على

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازى ٦/٢ : ١ : ١١٣ – ط : دار الكتب العلمية بيروت . أولى ١٤١١ هـ / ١٩٩٠م – .

(٢) إعجاز القرآن للباقلانى/٥٤ .

(٣) نفسه /١٦٨ .

السور المكية هى التى أعجزت فصحاء مكة وخطباء ما المصاقع ! أليست هى التى جعلت الوليد يقول : « إن له لحلاوة .. الخ » ثم تناول الباقلانى قضية النظم ، وتطرق إلى أن النظم واقع فى الحروف أم فى الكلمات ؟ أجاب الباقلانى : قلنا : الذى تحداهم به أن يأتوا على الحروف التى هى نظم القرآن منظومة حكمها متتابعة كتتابعها ،مطردة كاطرادها، ولم يتحداهم أن يأتوا بالكلام القديم الذى لامثل له » . (١)

التاسع : أنه شىء لا يمكن التعبير عنه ، وهو اختيار السكاكى إذ قال : واعلم أن شأن الإعجاز عجيب يدرك ولا يمكن وصفه كاستقامة الوزن يدرك ولا يمكن وصفها، وكالملاحة، وكما يدرك طيب النغم العارض لهذ الصوت، ولا طريق إلى تحصيله لغير ذوى الفطر السليمة إلا بإتقان علمى المعانى والبيان والتمرن فيهما » . (٢)

العاشر : الإعجاز فيه من حيث استمرت الفصاحة والبلاغة فيه من جميع أنحائها فى جميعه استمرارا لا توجد له فترة، ولايقدر عليه أحد من البشر، وكلام العرب ومن تكلم بلغتهم لا تستمر الفصاحة والبلاغة فى جميع أنحائها فى العالى منه إلا فى الشىء اليسير المعدود، ثم تعرض الفترات الإنسانية فتقطع طيب الكلام ورونقه فلا تستمر الفصاحة فى جميعه، بل توجد تفاريق وأجزاء منه . (٣)

---

(١) إعجاز القرآن / ٣٩٤ . (٢) ينظر مفتاح العلوم/٥١٣ .

(٣) ينظر منهاج البلغاء لحازم القرطاجنى .

الحادى عشر : إن القرآن إنما صار معجزا ؛ لأنه جاء بأفصح الألفاظ فى أحسن نظوم التأليف مضمنا أصح المعانى . (١)

وللخطابى رأى آخر فى الإعجاز وهو : « صنيعه – أى القرآن – بالقلوب، وتأثيره فى النفوس، فإنك لا تسمع كلاما غير القرآن منظوما ولا منثورا إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة فى حال ، ومن الروعة والمهابة فى حال أخرى مايخلص منه إليه » . (٢)

أما الشيخ أبو الحسن على بن عيسى فإنه يرى أن إعجاز القرآن يظهر في سبع جهات مجتمعة : « ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة – والتحدى للكافة، والصرفة، والبلاغة، والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة، ونقض العادة، وقياسه بكل معجزة» . (٣)

---

(١) بيان إعجاز القرآن للخطابى /٢٧– ت : د/ محمد زغلول سلام ، و د/ محمد خلف الله . ط : دار المعارف (ضمن ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن) .

(٢) نفسه /٧٠ .

(٣) النكت للرمانى /٧٥ : ١٠٩ .

اختلاف الآراء حول الإعجاز وسببه وموقف المستمعين للقرآن الكريم

ولا غرو أن ترى كل هذا الاختلاف حول نظرة العلماء لإعجاز القرآن الكريم وتحديد الوجه المنتخب ، إذ إن الموجه إليهم الكلام في الإعجاز لا يعدو أن يكون واحدا من ثلاث طوائف

الأولى : أهل اللدد والخصومة الذين شغلهم الوقوف بكل طريق يوعدون ويصدون عن سبيل الله بكل ما مكنوا به فى الأرض ، رغم إنهم أهل البيان والفصاحة ، وقد شهد للقرآن أحد فرسان حلبتهم ممن هم أعلم بالشعر رجزه وقصيده وبحوره ، يقول لقومه بنى مخزوم بعد أن سمع القرآن الكريم ، وراعه هذا الأسلوب : « والله لقد سمعت من محمد آنفا كلاما ماهو من كلام الإنس ولا من كلام الجن ، إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو وما يعلى » . (١)

ومع إنهم عرفوا أن القرآن : «أمر تعجز عنه قوى البشر ، ولا تبلغه قدرهم ، فانقطع الخلق دونه وعجزوا عن معارضته بمثله ، أو مناقضته فى شكله – مع إنه فتح لهم ميدان إظهار البراعة والظهور على حلبة المعارضة إن استطاعوا إلي ذلك سبيلا وأرخى لهم عنان التحدى والمعارضة إن عجزوا عن التحدى من مثل القرآن إلى التحدى بعشر سور ، إلى سورة ولما عجزوا عن ذلك لم تلن شوكة العناد وإنما أخذوا – يقولون مرة إنه شعر لما رأوه كلاما منظوما ،

---

(١) لكشاف ٦٣٦/٤ – ط : العلمية بيروت – .

ومرة إنه سحر إذا رأوه معجوزا عنه ، غير مقدور عليه . وكانوا مرة لجهلهم وحيرتهم يقولون :

﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ (١)

ومع علمهم أنّ صاحبه أمى وليس بحضرته من يملى أو يكتب في نحو ذلك من الأمور التى جماعها الجهل والعجز» (٢) ولما لم يسلم لهم ذلك نقموا علي اختيار الله لنبيه، فكان ماحكاه القرآن عنهم :

﴿ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ . (٣)

الثانية : قوم سمعوا القرآن فانشرحت له صدورهم، واطمأنت إليه قلوبهم ، وكان منهم من صدق فيهم قول المولى سبحانه ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ . (٤)

وآخرون قال الله فيهم :

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ وَمَا لَنَا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ . (٥)

---

(١) الفرقان /٥ .
(٢) بيان إعجاز القرآن للخطابى /٢٨ .
(٣) الزخرف /٣١ .
(٤) الأنفال /٢ .
(٥) المائدة /٨٣ : ٨٥ .

الثالثة : طائفة دخلوا الإسلام لم تخل من رجلين .

رجل دخل الإسلام وفى قلبه دخن ، دفعته نفسه المريضة لأن يكيد للإسلام وأهله ، قد أشربت قلوبهم الكفر، فلم تتفجر جوانبهم إلا عن سوء نيه وخبث طوية بحثوا عن المتشابه ليتخذوه غرضا وعرضا ينفثون من خلاله سمومهم ، يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله .

ورجل جهل أساليب العربية، فأخذ يطعن في إعجاز القرآن الكريم عن قصد أو عن جهل ، ولم تفطن ملكته لما في العربيه من بديع بلاغتها وجمال أسلوبها وحسن سبكها ، وعظيم نظمها ، ولا تزال قصة السائل عن التشبيه في قوله تعالى ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾[1] تضرب في سمع الزمان خير شاهد على الفقر البلاغى ، والجهل المطبق بأساليب العربية والعجز كل العجز عن إدارك أسرار بلاغة الذكر الحكيم [2] - ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴾ - [3] لكن أين هؤلاء وهؤلاء من قوم اشتروا أنفسهم فربح البيع ، اتخذهم الله جندا لكتابه فأخذوا بأيدى

---

(١) الصافات / ٦٥ .

(٢) تنظر القصة فى معجم الأدباء لياقوت الحموى ١٥٨/١٩ : ١٥٩ - ط : القاهرة ١٣٢٤هـ / ١٩٠٦م، أولى ، وط : دار المشرق بيروت لبنان -.

(٣) النساء / بعض الآية ٨٢ .

قصار الباع عن موطن الحسن وجعلوه تحسه مشاهدا ملموسا، يوضحون لمن ادعى- ظلما وزورا - أن فى آيات القرآن غموضا، لم يغمض لهم جفن عن كتاب الله تعالى عنايتهم وجوه إعجازه، بغيتهم إرشاد طلابه إلى هذه الوجوه أبلجها ضوءا، وأتمها عناية، وأكملها درسا وفحصاً فكانت **فكرة النظم** .

الفصل الأول
النظم
تاريخه - معناه

إعجاز القرآن بنظمه من القضايا العريقة فى تاريخ البحث فى إعجاز القرآن، والذى جعلها تشغل هذا الحيز أنها تتناول اللفظ والمعنى، وهذه مسألة ليست محل اتفاق بين البلاغيين ، وكذلك إذا بطل جعل الإعجاز فى الاستعارة وحدها، أو الكناية أو التمثيل ، فلم يبق إلا أن يكون المعنى فى ضم الكلمة إلى الكلمة توخى معنى من معانى النحو فيما بينهما (١) ولأنه لايصح أن يراد به النطق باللفظة بعد اللفظة من غير اتصال يكون بين معنييهما . (٢)

لكن العلماء لما تناولوا هذه الفكرة لم يكونوا على مذهب واحد ، فقد تنوعت مابين معتزلة وأهل السنة ، ولم نتمكن من الحصول على كل ماكتب فى النظم، ومن ثم فان هناك من عرضنا منهجه من تراثه ، ومنهم من ذهبت أوراقه أدراج الرياح وحال ذلك بيننا وبين الوقوف على محتوياتها، ومن ثم أصبحنا نشير إليها مجرد إشارة للثبت التاريخى لا غير .

وكان تناولهم أيضا لهذه الفكرة مابين مؤلف مستقل فى النظم ، وما بين لمح عابرة جاءت بين ثنايا كلامهم مثلما قال الفراء عند

(١) ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن / ٢٠٢ .

(٢) نفسه / ٢٠٢ .

تعرضه لسورة الرحمن ، فقد أوضح بأن موسيقى ألفاظ القرآن الكريم ونظمه لها أثر فى نفوس السامعين . (١)

وأول من أفرد النظم بمؤلف هو العلامة الجاحظ - فيما توفر لدينا من مراجع - غير إن هذا المؤلف قد فقد مع كتب أخرى للجاحظ وإنما قلنا عنه أنه أول من أفرد النظم بمؤلف، لأنه لم يكن أول من قرع باب هذه الفكرة لكنه سبق إليها بمقولات نثرت فى بطون كتب من سبقه وبخاصة عند المتكلمين ، فقد كانوا أنشط الناس فى البحث فى هذا الشأن ، ولعل المحرك لهم مقوله النظام (٢٢١هـ) بأن إعجاز القرآن بالصرفة، يقول الشيخ أبو الحسن الأشعرى : واختلفوا فى نظم القرآن هل هو معجز أو لا ؟ على ثلاثة أقاويل ، فقالت المعتزلة إلا (النظام) و (هشام الغوطى) و (عباد بن سليمان) تأليف القرآن ونظمه معجز محال وقوعه منهم كاستحالة إحياء الموتى منهم ، وأنه علم لرسول الله ﷺ » . (٢)

ولم يبق لنا بعد من مصدر نعرف به رأى الجاحظ فى النظم إلا ما جاء نتفا مبعثرة بين أضابير كتبه ، نجمع شتاتها ونحاول التعرف من خلالها على رأيه ، أو ما تناقلته بعض الكتب من آراء ونسبتها إليه ، بيد أننا ننبه إلى أن الجاحظ حيف عليه فقد فهم قوله على غير مراده، إذ ظن بعض الباحثين إنه يهتم باللفظ ويهمل جانب

---

(١) ينظر معانى القرآن للفراء (سورة الرحمن /٤٦) .

(٢) مقالات الإسلاميين ٢٦٩/١- ط : النهضة المصرية - .

المعنى ، وذلك لما قال : « والمعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العجمى والعربى ، والقروى والبدوى، وإنما الشأن فى إقامة الوزن وتخير اللفظ، وسهولة المخرج ، وصحة الطبع ، وكثرة الماء ، وجودة السبك ، وإنما الشعر صياغة وضرب من التصوير » (١)

كما تنكر أيضا لهذ الرجل ، فلم يعتن بدرسه فى البحث البلاغى، إلى أن قيض الله من ينتصر لهذا الرجل المفترى عليه ، فقد نهض أستاذنا الدكتور فوزى إلى كتاب البيان والتبيين للجاحظ متناولا اياه بالتحليل والتعليل ، قصدا إلى المقاييس البلاغية التى جاءت نتفا مبعثرة بين طيات كتابه – وإنه لعمل شاق – فأظهر خفيها ، ونسق جليها ، وكان مما تناوله أستاذنا ، مسألة اللفظ والمعنى، فوفاها حقها ، بدراسة اتسمت بجدية البحث والإخلاص فيه، دراسة اعتمدت على ماكتبه الجاحظ نفسه فى مواطن أخرى فضم أستاذنا إليها شتاتها ، ورد إليها إلفها، فجاءت فصلا ، وحكما عدلا، بحق لا يأتيه ريب، ويقين لا يخالطه شك فى أن اللفظ والمعنى : (كلاهما ركنا الأدب وهما – معا – مناط التأثير فى النفوس والقلوب ، وتتبعنا للجاحظ فى كتابه يجعلنا نؤكد أن كلامه فى النهاية يؤول إلى هذه الفكرة .

---

(١) ينظر الحيوان للجاحظ ٣/١٣٠ : ١٣٢، ودلائل الإعجاز / ٢٥٦ .

فهو لم يفرق بين اللفظ والمعنى فى التأثير على النفوس سواء كان هذا التأثير حسنا أو سيئا) [1] ، وأما عن إعجاز القرآن عند الجاحظ فإنه يرى أنه واقع فى نظمه ، ونراه يكتفى بأن ينوه بسورة واحدة مع بقاء التحدى فيقول : « ولو أن رجلا قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم سورة قصيرة أو طويلة لتبين له فى نظامها ومخرجها من لفظها وطابعها ، أنه عاجز عن مثلها ، ولو تحدى بها أبلغ العرب لأظهر عجزه عنها» . [2]

ويأتى الجاحظ فى موطن آخر فيشرح مفهومه عن النظم فيقول : « ومثل ذلك ما رفع من أوهام العرب، وصرف نفوسهم – أعجزهم – عن المعارضة للقرآن بعد أن تحداهم الرسول بنظمه ، ولذلك لم نجد أحدا طمع فيه ، ولو طمع فيه لتكلفه، ولو تكلف بعضهم ذلك فجاء بأمر فيه أدنى شبهة تعظمت القصة على الأعراب وأشباه الأعراب ، والنساء وأشباه النساء ، ولا لقى ذلك من المسلمين عملا ، ولطلبوا المحاكمة والتراضى ببعض العرب ، ولكثر القيل والقال ، فقد رأيت أصحاب مسيلمة إنما تعلقوا بما ألف لهم مسيلمة من ذلك الكلام الذى يعلم كل من سمعه أنه إنما عدا على القرآن فسلبه وأخذ

---

(١) المقاييس البلاغية عند الجاحظ / ٢٣٠ – ط : دار الثقافة للنشر والتوزيع ط ، ١٩٨٣ .

(٢) رسائل الجاحظ (حجج النبوة) ٢٢٩/٣ ودلائل الإعجاز ٢٥١ .

بعضه وتعاطى أن يقارنه ، فكان لله وذلك التدبير الذى لا يبلغه العباد ولو اجتمعوا» . (١)

ولا أدرى لماذا يذهب الدكتور الجوينى إلى أن الجاحظ إنما يذهب إلى القول بالصرفة غير الصرفة التى يقصدها النظام ، فإن النظام يقصد جمهور الناس وأن الجاحظ يرى صرف البلغاء فيقول : «النظام قد انفرد بالرأى المخالف لجمهور المسلمين ؛ لأنه يرى قدرة المنشئين على أن ينظموا مثل القرآن ، والإعجاز فى صرف الله لهم عن هذا الصنيع ، أما الجاحظ فيرى أن القرآن يصرف أطماع البلغاء عن أن يأتوا بمثله ليأسهم من استواء كلامهم على مرتبه عالية لا تختلف من الجودة كما هو شأن الأسلوب القرآنى الذى يجرى جميعه على نمط واحد فى الجودة المعجزة القاطعة للأطماع » . (٢)

ولم خصص الدكتور الجوينى هذا التخصيص ، وكلام الجاحظ واضح لا يحتاج لتأول فى أن إعجاز القرآن فى نظمه وأن التحدى شامل لكل طوائف الخلق إنسهم وجنهم على السواء، فإن الجاحظ يقول بعد أن عدد مناسبات المعجزة وموافقة كل نبى لمن أرسل إليهم بتحديهم فيما برعوا فيه، فذكر معجزة موسى مع قومه، وعيسى مع

---

(١) الحيوان ٣١/٤ .

(٢) منهج الزمخشرى فى تفسير القرآن / ٢١٧ – ط : دار المعارف ثانيه ١٩٦٨ م – .

قومه ، وعقب بمعجزة محمد - ﷺ - فقال : « وكذلك قوم محمد - ﷺ - كان أغلب الأمور عليهم وأحسنها عندهم ، وأجلها فى صدورهم: حسن البيان ، ونظم ضروب الكلام ، مع علمهم له ، وانفرادهم به ، فحين استحكمت لفتهم ، وشاعت البلاغة فيهم ، وكثر شعراؤهم ، وفاق الناس خطباؤهم بعثه الله عزوجل ، فتحداهم بما كانوا لا يشكون أنهم يقدرون على الاكثر منه ، فلم يزل يقرعهم بعجزهم ، وينتقصهم على نقصهم ، حتى تبين ذلك لضعفائهم وعوامهم ، كما تبين لأقويائهم وخواصهم وكان ذلك من أعجب ما أتاه الله نبيا قط » . (١)

وكذلك مقوله الخياط الذى حدد فيها أن الجاحظ إنما ألف كتابا فى نظم القرآن ، ولم يقل بالصرفة عن الخواص كما ادعى الدكتور الجوينى فيقول : « ولا يعرف كتاب فى الاحتجاج لنظم القرآن، وعجيب تأليفه ، وأنه حجه لمحمد - ﷺ - على نبوته غير كتاب الجاحظ » . (٢)

وقد شاعت مسألة إعجاز القرآن الكريم بنظمه ، وتداولها جمهور المتعرضين للذكر الحكيم من متكلمين ، ومفسرين ولغويين ، وأدباء ، ولذا لن يكون هذا البحث خاصا بالمتكلمين فقط ، وإنما سنشير فى لمحة موجزة لبعض الذين تناولوا هذه القضية مع مراعاة الإيجاز

---

(١) حجج النبوة / ٨٤ .

(٢) الانتصار والرد على ابن الراوندى / ١٥٤ - ط ١٩٢٥ م - .

الشديد لتطور هذه الفكرة حتى بلغت الأوج ، وانقطع فيها اللجج .

جاء ابن قتيبة الدينورى بعد الجاحظ بمؤلف عرض فيه « لما خفى عن العامة الذين لا يعرفون إلا اللفظ وظاهر دلالته على معناه » [١] وبين الهدف الذى عناه من وضع هذا السفر بعد أن عرض لمنزلته ، وتسميته فقال : « وقطع منه بعجيب النظم عن حيل المتكلفين ، وجعله متلوا لا يمل على طول التلاوة » . [٢]

وتعرض ابن قتيبة لفنون شتى من فنون البلاغة العربية يظهر من خلالها أن إعجاز القرآن فى بلاغته ونظمه، وقد كانت لابن قتيبة جهود أخر فى ميدان البحث البلاغى ، وجدنا صداها عند كثير من البلاغيين الذين آتوا بعده ، وبخاصة فى درسه للمجاز ورده على الطاعنين فيه بأنه كذب محض . [٣]

ويأتى العلامة الطبرى فيصرح فى مقدمة جامع البيان إلى أن إعجاز القرآن يرجع إلى بديع نظمه وتأليف الغريب الذى أعجز العرب مع إنه بلغتهم ، ولفظه كلفظهم . [٤]

ومن الذين لهم جهد لاينكر العلامة الواسطى فقد وضع كتابا

---

(١) إعجاز القرآن ونظمه عند السكاكى / ٢٥ – ط الحسين الإسلامية أولى ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩ م .

(٢) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة / ٣– ط : دار التراث بمصر – .

(٣) نفسه /٩٩ .

(٤) جامع البيان للطبرى ٦٥/١ .

أسماه (إعجاز القرآن فى نظمه) وقد شرح الشيخ عبد القاهر الجرجانى هذا الكتاب بشرحين أحدهما صغير، والآخر كبير سماه (المعتضد)، وقد ذهب الدكتور محمد نايل إلى أن عبد القاهر لولا أنه وجد فى الكتاب ما يوافق فهمه للنظم ماشرحه مرتين» [(١)]، ويقول الرافعى أيضا : « ولا نظن الواسطى بنى إلا على ما ابتدأه الجاحظ، كما بنى عبد القاهر فى دلائل الإعجاز على الواسطى» . [(٢)]

وأما الرمانى فإنه الآخر قد وضع مؤلفا فى النظم أسماه (نظم القرآن) [(٣)] ، لكنه فقد مع تفسيره للقرآن أيضا كذلك له رسالة فى إعجاز القرآن ، وأما ما وقع تحت أيدينا من تراثه (النكت) فإنه صرح فيه ان إعجاز القرآن فى بلاغته وأن البلاغة فى اللفظ والمعنى معا ، ولا يتحقق وجودها إلا بتحقيقهما وتلازمهما تلازما تاما، وبذا يكون قد وافق الجاحظ ، وبشر بن المعتمر ، وابن قتيبة ، ويقرر الرمانى ذلك فيبين أن « البلاغة ليست فى إفهام ؛ لأنه قد يفهم المعنى متكلمان أحدهما بليغ ، والآخر عيى ، ولا البلاغة أيضا بتحقيق اللفظ على المعنى ؛ لأنه قد يحقق اللفظ على المعنى وهوغث مستكره ونافر متكلف » . [(٤)]

---

(١) نظرية العلاقات أو النظم بين عبد القاهر والنقد العربى الحديث /١٤ – ط : دار المنار بمصر ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩ .

(٢) ينظر إعجاز القرآن للرافعى / ١٥٢ .

(٢) أشار إليه الطبرس فى مجمع البيان . (٤) النكت / ٧٠ .

وكذلك العلامة الخطابى الذى أنشأ رسالة فى إعجاز القرآن [1] وقد بينا رأية من قبل فى الإعجاز .

وأما أبو هلال العسكرى فقد بين أن إعجاز القرآن فى بلاغته ، وأن من أغفل البلاغة لم يقع علمه بإعجاز القرآن ... وإنما يعرف إعجازه من جهة عجز العرب عنه، وقصورهم عن بلوغ غايتهم [2]، ثم عرج إلى مسألة اللفظ والمعنى وجعلها من شرط البلاغة ، فقال : « أن يكون المعنى مفهوما، واللفظ مقبولا ... ومما يؤيد ما قلنا أن البلاغة إنما هى إيضاح المعنى وتحسين اللفظ» [3]. وتناول النظم، وعقد له بابا سماه (حسن النظم) [4]، وأن النظم عنده يكون فى التأليف والرصف، والضم ، وأن الرصف منه الحسن والقبيح ، وحسن الرصف عند أبى هلال : « أن توضع الألفاظ فى مواضعها، وتمكن فى أماكنها، ولا يستعمل فيها التقديم والتأخير، والحذف والزيادة إلا حذفا لا يفسد الكلام ولا يعمى المعنى ، وتضم كل لفظة منها إلى شكلها ، وتضاف إلى لفقها .

وسوء الرصف تقديم ماينبغى تأخيره منها ، وصرفها عن وجوهها ، وتغيير صيغتها ، ومخالفة الاستعمال فى نظمها .

---

(١) ينظر ما كتبنا عنه من قبل ص / ١٠ : ١١ .

(٢) الصناعتين / ٩:١٠ العلمية .

(٣) نفسه /١٩ : ٢١ .

(٤) نفسه /١٦٧ : ١٧٢ – ط : الحلبى و ١٧٧ : ١٩١ – ط : العلمية – .

– ثم تناول بعد أمثلة يكشف فيها عن جودة الرصف وحسن السبك ، وأن ذلك لا يكون إلا بالخلو من المعاظلة ، وأخذ فى ضرب أمثلة للقبيح الرصف بسبب المعاظله مثل قول الفرزدق :

إلى ملك ما أمه من محارب

أبوه ولاكانت كليب تصاهره

وقوله :

ومامثله فى الناس إلا مملكا

أبو أمه حى ابوه يقاربه

ثم ضرب أمثلة للحسن الرصف ، المستوى النظم ، ومنها قول الشاعر :

أيا شجر الخابور مالك مورقا

كأنك لم تجزع على ابن طريف

فتى لا يحب الزاد إلا من التقى

ولا المال إلا من قنا وسيوف

إذا فالنظم عند أبى هلال لم يتعد كونه التئام أجزاء الكلام ، مع حسن السبك وجودة الرصف بسلاسة الكلام واستواء أجزائه وتجنب ضروراته بتنقيته من المعاظله .

وكما كان للمتكلمين من المعتزلة النصيب الأوفى فى البحث فى إعجاز القرآن، فكذلك كان للمتكلمين من أهل السنة ومنهم

الباقلانى [1]، الذى رد قول النظام فى أن الإعجاز بالصرفة، وأخذ يبحث ويقارن وأطال فى درسه، وأجاد، وأفاض فى المحاوره، لكن أستاذى الدكتور فوزى – ونحن معه – يرى «أنه مع ذلك لم يستطع أن يبلور نظرية النظم، أو يقدمها فى إطار واضح محدد» [2]، على الرغم من أن دراسته جاءت مرتبة راعى فيها منهج التأليف الجيد، فقد ابتدأ بمرحلة التمهيد، والتفنيد، فالتجديد، ثم التأييد .

ومن الذين لهم رأى وشغل غيره بفكره ، القاضى عبد الجبار ، فإنه لم يؤلف كتابا بعينه فى إعجاز القرآن ، وإنما خصص أحد أجزاء كتابه (المغنى) ، عرض فيه أولا لإثبات صحة القرآن وذكر وقوع النسخ والإحكام التى لا يصح أن يقع فيها نسخ ، ثم تطرق بعد إلى الموضوع الأساسى الذى عناه وهو الإعجاز ، ومفهوم الإعجاز عنده ينطلق من الإجابة على سؤال محدد : ماهو الكلام الفصيح ؟ .

إذ أنه لا يصح عند القاضى عبد الجبار : « أن يكون اختصاص القرآن بطريقة فى النظم دون الفصاحة – وما الفصاحة عنده إلا – جزالة اللفظ وحسن المعنى» . [3]

---

(١) ينظر ماكتبناه من قبل / ٨ : ٩ .

(٢) إعجاز القرآن ونظمه عند السكاكى / ٣١ .

(٣) المغنى ١٦/ ١٩٩ – ط / ١٣٨٠ هـ .

ومن هذا المنطلق توصل القاضى عبد الجبار إلى موقع الفصاحة وأنها « لا تظهر فى أفراد الكلام ، وإنما تظهر فى الكلام بالضم على طريقة مخصوصة ولابد مع الضم من أن يكون لكل كلمة صفة سواء كانت الكلمة مفردة أو مركبة ، وبالتالى دار النظم حول مجالات ثلاثة :

- اختيار الكلمة فى ذاتها .
- ووظيفتها التى تؤديها فى مجتمع الكلمات التى ترتبط بها .
- وعلاقتها بجاراتها لتؤدى وظيفتها على أكمل وجه وأتمه .

وأين دور المعانى عند القاضى عبد الجبار ؟

المعانى عنده تبع للنظم ، ومن ثم جعل عبد الجبار إعجاز القرآن فى جزالة لفظه وحسن معناه على وجه لم تبلغه بلاغة البلغاء ، وفصاحة الفصحاء ، يقول القاضى عبد الجبار : « أعلم أن الفصاحة لا تظهر فى أفراد الكلام ، وإنما تظهر فى الكلام بالضم على طريقة مخصوصة ، ولابد مع الضم من أن يكون لكل كلمه صفة ، وقد يجوز فى هذه الصفة أن تكون بالمواضعة التى تتناول الضم ، وقد تكون بالإعراب الذى له مدخل فيه ، وقد تكون بالموقع .

وليس لهذه الأقسام الثلاثة رابع ، لأنه إما أن تعتبر فيه الكلمة أو حركاتها أو موقعها ، ولابد من هذا الاعتبار فى كل كلمة ، ثم لابد من اعتبار مثله فى الكلمات إذا انضم بعضها إلى بعض، لأنه قد يكون لها عند الانضمام صفة .

وكذلك لكيفية إعرابها وحركاتها وموقعها ، فعلى هذا الوجه الذى ذكرنا إنما تظهر مزية الفصاحة بهذه الوجوه دون ما عداها، فإن قال قائل : قد قلتم إن فى جملة ما يدخل فى الفصاحة حسن المعنى فهلا اعتبرتموه ؟ .

قيل له : إن المعانى وإن كان لابد منها فلا تظهر فيها المزية، ولذلك نجد المعبرين عن المعنى الواحد يكون أحدهما أفصح من الآخر ، والمعنى متفق على أنا نعلم أن المعانى لايقع فيها تزايد ، فإذن يجب أن يكون الذى يعتبر التزايد عنده الألفاظ التى يعبر بها عنها ، فإذا صحت هذه الجملة فالذى تظهر به المزية ليس إلا الإبدال الذى به تختص الكلمات أو التقدم والتأخر الذى يختص الموقع أو الحركات التى تختص الإعراب ، فبذلك تقع المباينة بين الكلام » . (١)

ومن الامور التى تجدر الإشارة إليها أن الكلام الذى قاله القاضى عبد الجبار – وهو رأس من رؤوس المعتزلة – فى النظم نجده أحد البنيات الأساسية التى اعتمد عليها عبد القاهر – العالم السنى – فكرة النظم عنده ، ومن ثم نجد القاضى عبد الجبار لم يتأثر بمعتقده القائل بخلق القرآن ، وإنما كانت نظرته إلى بلاغة القرآن نظرة موضوعية اعتمد فيها المقاييس البلاغية المعتمدة لدى البلاغيين، وعليه فقد جاءت دراسته فى موقعها فأصابت موقعا

(١) المغنى ١٦/١١٩ .

حسنا ، ولا يزال صداها نجده منذ أن اختارها الشيخ عبد القاهر مذهبا لإعجاز القرآن الكريم .

أما معاصره الشريف الرضى الشيعى المعتقد، المعتزلى الفكر، فلم يكن موفقا توفيق القاضى عبد الجبار فى معالجته لقضية إعجاز القرآن الكريم، فوق إنه فى تطبيقاته أدخل المجاز العقلى فى الاستعارة (١)، عند تعرضه لقوله تعالى ﴿ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴾ . (٢)

كما إنه فى درسه لإعجاز القرآن الكريم غلبت عليه فكرة الاعتزال، ويتضح ذلك من قوله فى معنى الآيه الكريمة ﴿ خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ (٣) ؛ ﴿ خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾؛ لأن العجل فعل من أفعال الإنسان ، فكيف تكون مخلوقة فيه لغيره ؟ ، ولو كان كذلك ماجاز أن ينهاهم عن الاستعجال فى الآية ﴿ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ ، لأنه ينهاهم عما خلقه فيهم .

وأما عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجانى، فهو أحد القلائل الذين برزوا فى ميدان البحث فى الإعجاز القرآنى بما تميز به بحثه بالدقة والأصالة ، والميل إلى الطابع الأدبى المدعم بالمقارنات

---

(١) إعجاز القرآن ونظمه عند السكاكى/٣١ - وينظر ما كتبه الشريف الرضى فى : تلخيص البيان ، والمجازات النبوية ، وتفسير أسرار التنزيل - .

(٢) المزمل / ١٧ . (٣) الأنبياء / ٣٧ .

والموازنات الأدبية المدعمة بالمناقشة التحليلية المبرزة لجوانب الضعف والركاكة فى كلام العرب بخلاف ماعليه القرآن الكريم الذى حف بالعصمة .

وقد خلف عبد القاهر (دلائل الإعجاز) ، مهد فيه بمقدمة تؤهل فيه لماهية النظم لما قال : « معلوم أن ليس النظم إلا تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب بعض – والكلم عنده – تعلق اسم باسم ، واسم بفعل ، وتعلق حرف بهما » (١)، ويقول أيضا مبينا أن من معانى التعليق فيقول : « وليت شعرى كيف يتصور وقوع قصد منك إلى معنى كلمة من دون أن تريد تعليقها بمعنى كلمة أخرى ثم أخذ بعد فى توضيح فكرته فأثار بعض التساؤلات وأخذ فى الرد عليها؛ لينقل القارىء معه إلى الهدف الذى يريده ألا وهو إثبات حقيقة عجز العرب عن معارضة القرآن الكريم ، وليصل إلى أن إعجاز القرآن الكريم بنظمه ، فيتناول نظم الحروف والألفاظ وأنه مقترن بنظم المعانى .

ولذا يقول : « أعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذى يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله ، وتعرف مناهجه التى نهجت فلا تزيغ عنها ، وتحفظ الرسوم التى رسمت فلا تخل بشىء منها » . (٢)

---

(١) دلائل الاعجاز / ٤ .

(٢) نفسه / ٨١ .

وليس الوضع الذى يقتضيه علم النحو يعنى به أحوال الإسناد ومتعلقاته ، والأساليب ، وفروق الخبر، والفصل والوصل ، والمجاز الحكمى ، والقصر .. الخ، فإنه يتسع ليشمل المجاز والكناية ، يقول عبد القاهر : « فإن قيل قولك إلا النظم يقتضى إخراج ما فى القرآن من الاستعارة وضروب المجاز من جملة ماهو به معجز، وذلك مالا مساغ له .

قيل : ليس الأمر الأمر كما ظننت بل ذلك يقتضى دخول الاستعارة ونظائرها فيما هو معجز ، وذلك لأن هذه المعانى التى هى الاستعارة ، والكناية، والتمثيل، وسائر ضروب المجاز من بعدها من مقتضيات النظم ، وعنه يحدث وبه يكون ؛ لأنه لا يتصور أن يدخل شىء منها فى الكلم ، وهى أفراد لم يتوخ فيما بينها حكم من أحكام النحو، فلا يتصور أن يكون هاهنا فعل أو اسم قد دخلته الاستعارة من دون أن يكون قد ألف مع غيره » . (١)

إذا فمعانى النحو التى يريدها عبد القاهر ماهى إلا تمثل تلك العلاقات القائمة بين معانى الكلم فى النفس، وإليها ومنها نستمد ترتيب تلك المعانى ، إذ لا يتصور أن تكون للفظة تعلق بلفظة أخرى من غير أن يعتبر حال معنى هذه مع معنى تلك ويراعى هناك أمر يصل إحداهما بالأخرى كمراعاة كون (نبك) جوابا للأمر فى قوله : (قفا نبك) .

---

(١) دلائل الإعجاز / ٣٩٣ .

وكأن تعمد إلى اسمين فتجعل أحدهما خبرا عن الآخر ، أو تتبع الاسم اسما على أن يكون الثانى صفة الأول، أو تأكيداً له، أو بدلا منه، أو تجىء باسم بعد تمام كلامك على أن يكون التالى صفة، أو حالا، أو تمييزا، أو تتوخى فى كلام هو لإثبات معنى : أن يعيد نفيا، أو استفهاما، أو تمنيا ، فتدخل عليه الحروف الموضوعة لذلك ، أو تريد فى فعلين أن تجعل أحدهما شرطا فى الآخر، فتجىء بهما بعد الحرف الموضوع لهذا المعنى أو بعد اسم من الأسماء التى ضمنت معنى ذلك الحرف، وعلى هذا القياس .

ذلك هو معنى النظم ، فلا نظم فى الكلم ولا ترتيب إلا بأن يصنع بها هذا الصنيع ونحوه . (١)

ولسنا هنا فى مجال الكلام عن النظم ، وإنما الذى يعنينا قوله فى إعجاز القرآن، ولكننا قبل أن نقوله نود أن ننبه إلى أن عبد القاهر لم يكن المبتكر لفكرة النظم – كما رأيت من قبل – وإنما هو مسبوق إلى هذه الفكرة ، منتفع بما كتبه بشر بن المعتمر، والجاحظ، والرمانى ، وأبو هلال ، والخطابى ، والسيرافى النحوى، والقاضى عبد الجبار ، لكن هذا لا ينفى جهد الرجل، فإن عبد القاهر هو صاحب الفضل الأول والأخير فى وضع القواعد العامة

(١) ينظر دلائل الإعجاز ، ونظرية عبد القاهر فى النظم للدكتور درويش الجندى / ٥٤ – ط : الرسالة – .

النظم ، وأن جهوده فى هذا المجال تعد شيئاً نادرا فى تاريخ الفنون الأدبيه» . (١)

ثم يعرج عبد القاهر إلى الرد على المعتزلة ، ويبين وجه إعجاز القرآن الكريم، وأنه يكمن فى نظمه ويصرح بذلك فيقول : « إنا إذا سقنا دليل الإعجاز فقلنا : لولا أنهم حين سمعوا القرآن وحين تحدوا إلى مضارعته ... ماذا أعجزهم ؟ أم ما بهرهم عنه ؟

فقلنا : أعجزتهم مزايا ظهرت لهم فى نظمه، وخصائص صادفوها فى سياق لفظه، وبدائع راعتهم من مبادىء آية ومقاطعها، ومجارى ألفاظها ومواقعها، وفى مضرب كل مثل ، ومساق كل خبر، وصورة كل عظة وتنبيه، وإعلام وتذكير، وترغيب وترهيب ، ومع كل حجة وبرهان، وصفة وتبيان، وبهرهم أنهم تأملوه سورة سورة ، وعشرا عشرا ، وآية آية ، فلم يجدوا فى الجميع كلمة ينبو بها مكانها ، ولفظة ينكر شأنها أو يرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبه، أو أحرى وأخلق ، بل وجدوا اتساقا بهر العقول، وأعجز الجمهور، ونظاما والتئاما، وإتقانا وإحكاما ، لم يدع فى نفس بليغ منهم، ولوحك بيافوخه السماء ، موضع طمع، حتى خرست الألسن عن أنى تدعى وتقول، وخذيت القروم فلم تملك أن تصول» . (٢)

---

(١) نظرية العلاقات / ٥٨ – ط : دار المنار – .

(٢) دلائل الإعجاز / ٣٨ و ٣٩ .

وضرب لذلك أمثلة عدة منها قوله فى بيان الإعجاز البلاغى فى الآية الكريمة : ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (١) وبعد أن ذكر ما من الله تعالى عليه به من أسرار ختم بقوله : « أفترى لشىء من هذه الخصائص التى تملؤك بالإعجاز روعة ، وتحضرك عند تصورها هيبة تحيط بالنفس من أقطارها تعلقا باللفظ من حيث هو صوت مسموع وحروف تتوالى فى النطق أم كل ذلك لما بين معانى الألفاظ من الاتساق العجيب ؟

فقد اتضح إذن اتضاحا لا يدع للشك مجالا، أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هى ألفاظ مجردة ، ولا من حيث هى كلم مفردة، وأن الفضيلة وخلافها فى ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التى تليها ، وما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ » . (٢)

ولم يكتف عبد القاهر بذلك وإنما أفرد بحثا مستقلا تناول فيه بالدرس والتحليل ، والتطبيق، وبرهن على رأيه بدرس مفيد نجمله فيما يلى : أن القرآن معجز بنفسه، وأسباب إعجازه كامنه فيه، واقتنع بأن سبب إعجازه هو فصاحته وبلاغته الكامنة فى نظمه على هذا النحو الذى جاء به، لم يؤمن بأن الإعجاز ناشىء من تخير مفرداته، لأن هذه المفردات لم تكتسب شيئا جديدا لم يكن لها من

---

(١) هود / بعض الآية ٤٤ .

(٢) دلائل الإعجاز / ٤٥ : ٤٦ .

قبل أن توضع فى آيات القرآن ... ولا بأن الإعجاز فى أن كانت كلماته غير ثقيلة على اللسان ؛ لأن ذلك يوجب أن يكون العامى الساقط فصيحا ... ولم يؤمن بأن الإعجاز ناشىء من أن كان للقرآن موسيقى تكونت من مواقع حركاته وسكناته ؛ لأن الوزن ليس من الفصاحة والبلاغة فى شىء ... ولم يؤمن كذلك بأن الإعجاز ناشىء عن هذه الفواصل التى فى أواخر الآيات ... ولم يؤمن بأن مصدر الإعجاز وحده كان فى الاستعارة والكناية وألوان المجاز التى تنثر هنا وهناك فى القرآن الكريم ... ولم ينكر عبد القاهر أن الاستعارة ونظائرها من جملة ما القرآن به معجز، لأنها من مقتضيات النظم وإنما أبطل عبد القاهر الأشياء السابقة؛ لأنها أما أن تكون فى مقدور الناس ، أو أن يكون مثل القرآن مثل الكلام الساقط، أو أن البلاغة تكون فى بعض الآيات دون بعض [1] - : «وإذا بطل أن يكون شىء من ذلك سببا للإعجاز لم يبق سوى النظم مصدرا لهذا الإعجاز» . [2]

وأما المؤلف الثانى الذى تركه عبد القاهر وتكلم فيه عن إعجاز القرآن فهو (الرسالة الشافية)، ويذهب بعض الباحثين إلى أن هذه الرسالة جاءت فى مرحلة تالية لدلائل الإعجاز لما يلاحظ عليها من

---

(١) ينظر دلائل الإعجاز / ٣٨٥ : ٤٢٠ - ط : المدنى .

(٢) عبد القاهر الجرجانى للدكتور أحمد أحمد بدوى / ٨٧ - من سلسلة أعلام العرب . ط : دار مصر للطباعة - .

«التسلسل الفكرى والموضوعى للبحث فى إعجاز القرآن ... أنه فى مصنفه دلائل الإعجاز أبرز وجوه الإعجاز القرآنى فقط، بينما فى الرسالة الشافية أكد وقوع الإعجاز ذاته بالأدلة والبراهين ... ما تمتاز به بعض بحوث الرسالة بالتركيز على بعض الموضوعات التى طرقتها » . (١)

ابتدأ عبد القاهر رسالته بتقدمة عن اللفظ والمعنى، وعجز العرب عن معارضة القرآن، وموقف قريش حين ظهر النبى وتحداهم، وأقوال العرب فى القرآن فى بداية الدعوة، وأن عجز العرب جاء عن طريق عدم الإتيان بمثل القرآن، ثم رد على مذهب القائلين بالصرفة، وأنهى رسالته بمقالة خلص فيها إلى أن القرآن الكريم أجمع « عليه العلماء من أنه معجز فى نفسه، وأنه فى نظمه وتأليفه على وصف لا يهتدى الخلق إلى الإتيان بكلام هو فى نظمه وتأليفه على ذلك الوصف» . (٢)

ومن الذين تناولوا إعجاز القرآن دون أن يفرد مؤلفا خاصا متناولا النظم هو الآخر ألا وهو القاضى عياض الذى ضمن كتابه (الشفا بتعريف حقوق المصطفى) فصلا فى (إعجاز القرآن) حصر فيه وجوه الإعجاز فى أربعة هى : (٣)

(١) ينظر مفهوم الإعجاز القرآنى حتى القرن السادس الهجرى للدكتور أحمد جمال العمرى/١٦٩ (بتصرف) – ط : دار المعارف ١٩٨٤م – .

(٢) الرسالة الشافية / ١٥٦ .

(٣) ينظر الشفا بتعريف حقوق المصطفى .

١- حسن تأليفه - القرآن - والتآم كلمه، وفصاحته ، ووجوه إيجازه وبلاغته الخارقه عادة العرب .

٢- صورة نظمه العجيب ، والأسلوب الغريب ، المخالف لأساليب كلام العرب .

٣- ما انطوى عليه من الإخبار بالمغيبات .

٤- ما أخبر به عن القرون السابقة .

أما العلامة الزمخشرى فإنه قد طبق نظرية عبد القاهر فى أن إعجاز القرآن فى نظمه، وذلك أنه لم يفرد كتابا فى الإعجاز، وأنما يحكى ذلك فى أثناء تعرضه لآى الذكر الحكيم، فلم يفته بين الحين والآخر أن يبين أن نظم القرآن تضاءل دونه الفحول، وقصرت أذرع الفصحاء والبلغاء من أن تنسج ولو آية على منواله، فتجد الزمخشرى عند تعرضه للآية : ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ (١) يقول : « فانظر إلى بلاغة هذا الكلام وحسن نظمه، وترتيبه، ومكانة إضماده، ورصانه تفسيره، وأخذ بعضه بحجزة بعض كأنما أفرغ إفراغا واحداً، ولأمر ما أعجز القوى، وأخرس الشقاشق» (٢)، ويقول أيضا عند التعرض للآية ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٣) ما أحسن نظم هذا الكلام عند المرتاض بعلم

(١) النمل / ٨٨ .

(٢) الكشاف ٣/٣٧٤ - ط : العلمية - .

(٣) القصص / ٩ .

محاسن النظم » [1] ، ولهذا فإن الأسرار البلاغية لا يجليها إلا معرفة النظم ، ولذا يقول الزمخشرى أيضا : « وهذه الأسرار والنكت لا يبرزها إلا علم النظم وإلا بقيت محتجبة فى أكمامها » . [2]

وأما فخر الدين الرازى فإن كتابه (نهاية الإيجاز فى دارية الإعجاز)، عبارة عن تليخص لكتابى عبد القاهر (دلائل الإعجاز) و (أسرار البلاغة)، ومن ثم فإن رأى الرازى فى الإعجاز لا يختلف كثيراً عما ذهب إليه عبد القاهر من قبل ، وقد صرح الرازى « أن الوجه فى كون القرآن معجزا هو الفصاحة » [3] ولم يصرح بذلك لأول وهلة وإنما بعد أن ناقش الآراء السابقة وفندها .

أما السكاكى فقد تعرض هو الآخر لمسألة إعجاز القرآن ، ذكر فى مطلعها أوجه الإعجاز التى ذهب القوم إليها وهى : الصرفة ومجىء القرآن على أسلوب مبتدأ مباين لأساليب كلامهم فى خطبهم وأشعارهم ، لاسيما فى مطالع السور وسلامته عن التناقض، والاشتمال على الغيوب ، فهذه وجوه أربعة كل منها متعلق بلازم واللازم من وجه النظر منتف، وعليه فإنه لا يقبلها وإنما وجه الإعجاز هو : «ما يجده أصحاب الذوق من أن وجه الإعجاز : وهو أمر من

---

(١) الكشاف ٣٨٢/٣ .

(٢) الكشاف ٣٠٢/٢ – ط : مصطفى محمد – .

(٣) نهاية الإيجاز / ٥٨ .

جنس البلاغة والفصاحة ، ولا طريق لك إلى هذا الخامس إلا طول خدمة هذين العلمين ، بعد فضل إلهى من هبة يهبها بحكمته من يشاء ، وهى النفس المستعدة لذلك فكل ميسر لما خلق ؟» . (١)

وأما ابن أبى الأصبع فإننا نجد عنده جديدا لم نألفه من قبل عند من رأوا أن الإعجاز فى النظم ، وأن إدارك الإعجاز يكون بالوقوف على علمى المعانى والبيان، ولم يتعرضوا للبديع من قريب أو بعيد، لكننا نجد ابن الأصبع يشمر عن ساعده، ويضع مؤلفين (بديع القرآن) و (تحرير التحبير) ، يركز فيهما على فنون البديع، ويكثر من الشواهد القرآنية ليصل من خلال عرضه إلى أن الإعجاز بيانى فيه (البديع) على السواء مع المعانى والبيان . (٢)

وإذا ما طالعنا الطراز للعلوى، ذاك الرجل الى الذى انتفع بكتابات السابقين من أمثال عبد القاهر، وابن الزملكانى ، وابن مالك ، وابن الآثير، فقد اطلع على آرائهم فى الإعجاز ، وذكرها، وفند مالم يتفق ومايراه ، وانتهى إلى المختار مما عول عليه جهابذة صناعة البلاغة ، الذين أسهموا فى هذا البحث بحظ وافر فقبل بعضها ورد بعضها وأشاد بما يراه موافقا . (٣)

---

(١) مفتاح العلوم / ٥١٢ : ٥١٣ – ط : العلمية – .

(٢) ينظر ماكتبه ابن أبى الأصبع فى كتابيه (بديع القرآن) و (تحرير التحبير) .

(٣) الطراز للعلوى ٣٦٧/٣ : ٤٦٦ – ط : المقتطف ، والعلمية – .

وأما المتأخرون فكانت نظرتهم للإعجاز ، لم تخل من تقليد رأى من الآراء السابقة ، وأكثر شيوعا ما ذهب إليه عبد القاهر من أن إعجاز القرآن فى نظمه، إلا أننا نوافق ابن أبى الأصبع المصرى فيما ذهب إليه من أن الفنون البديعية موجودة فى القرآن الكريم، وأن القرآن الكريم الذى أعجز العالمين قد اشتمل على الحقيقة، والمجاز، والكناية، والبديع، والأساليب المختلفة، ولا نقول بأن بعض آى القرآن أبلغ من بعض بناء على ماقد يتبادر إلى الذهن من كلام عبد القاهر : « قد أجمع الجميع على أن الكناية أبلغ من الإفصاح ، والتعريض أوقع من التصريح، وأن للاستعارة مزية وفضلا ، وأن المجاز أبدا أبلغ من الحقيقة » . (١)

وإنما الذى نطمئن إليه ، وتوقن به نفوسنا، أن القرآن الكريم معجز ببلاغته، وليس هناك موطن فيه أعلى من الآخر ولو بمقدار أقل ما يمكن أن يرى ، لأنه لو تفاوت نظمه ، لكان حال رب العالمين حال خلقه حين يدركهم الكلال والملل فيجود كلامهم فى موطن ، ويصير غثا مستكرها فى مواطن أخر – كما رأيت فى دراستك النقدية والأدبية ، وكما استشهد به عبد القاهر من أن الكلمة تحسن فى موطن وتقبح فى أخر ، وذلك لما قال : « أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك فى موضع ، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك فى موضع أخر» (٢) –، حتى ما ذهبوا إلى أنه حرف مزيد فى القرآن.

---

(١) دلائل الإعجاز / ٧٠ . (٢) دلائل الإعجاز / ٤٦ وما بعدها .

وجدناه غير ذلك فإنه لو موضع حسن آكد غيره، ولا يغنى عنه حذفه . فالله الله لهذ الكلام العالى فى فصاحته وبلاغته ، ولا يسعنا أن نقول ما قاله الله سبحانه ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ . (١)

أثر دراسة الإعجاز القرآنى بالنظم :

إن دراسة إعجاز القرآن الكريم صاحبة الأثر الأكبر بل الفاعل الأساسى فى نشأة البلاغة والنقد، فإن آية واحدة من كتاب الله تعالى كانت الباعث الحقيقى لأن يؤلف أبو عبيدة كتابه (مجاز القرآن) (٢)، ولكم كان حرص البلغاء منهم على خدمة الكتاب العزيز، ولقد دعوا إلى ذلك فقال قائلهم : « إن أحق العلوم بالتعلم، وأولاها بالتحفظ – بعد المعرفه بالله جل ثناؤه – علم البلاغة ومعرفة الفصاحة ... وقد علمنا أن الانسان إذا أغفل علم البلاغة، وأخل بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ماخصه الله به من حسن التأليف ، وبراعة التراكيب ، وما شحنه به من الإيجاز البديع» (٣)، لأنهم عرفوا أن طلب الإعجاز لا يكون إلا بمعرفة البلاغة فهى الأداة « فى فهم الإعجاز من القرآن لأن إعجازه فى

---

(١) الإسرار / ٨٨ .

(٢) ينظر معجم الأدباء ١٥٨/١٩ ، ونزهة الألباء فى طبقات الأدباء / ٧٠ .

(٤) الصناعتين / ٩ – ط : العلمية – .

وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الأحوال منطوقة ومفهومة، وهى أعلى مراتب الكلام مع الكمال فيما يختص بالألفاظ فى انتقائها وجودة رصفها، وهذا هو الإعجاز الذى تقصر الأفهام عن إدراكه» . (١)

وقد أخذ الباحثون فى الدرس والتصنيف يكتبون فى الإعجاز فظهرت المؤلفات العديدة ، وعاد الأمر بالنفع التام على علوم البلاغة، والتفسير، وعلوم القرآن ، واللغة العربية ، بعامة، وكان أيمن هذه العلوم طالعا علم البلاغة ، فما كاد القرن الرابع يأفل نجمة حتى وجدنا مباحث البلاغة تستقل عن العلوم الأخرى ، بل وجدنا بعض مباحثها هى تنفصل عن الأخرى ، معلنة مرحلة جديدة فى حياتها ، واتسعت المدارك ، وتعددت الرؤى فى النظرة إلى إعجاز القرآن ، وسمعنا مالم نسمع به من قبل - إنكار وقوع المجاز فى القرآن الكريم (٢) - ، وهب المغرضون ، والمخلصون ، والآكلون على جميع الموائد، والملتحفون بكل عباءة ، هذا يذود، وآخر يزيد ، وما كان لنا أن نغادر الدنيا إلا ونترك شاهدا على عظيم تقديسنا، وتفانينا فى

---

(١) ينظر مقدمة ابن خلدون / ٥٥٢ .

(٢) ينظر ماكتبه ابن تيمية فى كتاب (الإيمان) ، وما كتبه ابن القيم فى كتابه الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ، وما كتبه الشنقيطى فى تفسيره للقرآن ، وما كتبه فى رسالته (منع جواز المجاز فى المنزل والإعجاز) .

خدمه الكتاب العزيز ، فعمدت إلى بعض آياته ، استجلى جليها ، واستمتع بثريها وسرها ، أجيل النظر ، وأطيل الفكر ، وأتدبر العبر ، وأعيد النظر بعد النظر ، أعجب بإعجازها ، وأستنطق إيجازها ، أطلب الحكم العلية ، وأستظهر من أسرار بلاغية ، قد يدعى أنها مخفية فى آيات صدرت أو ختمت بوصية ، تخيرتها للحاجة ، ولدفع اللجاجة ، فللعامل بها الغنم ، وعلى تاركها الإثم والغرم ، والله أسال الثواب والصواب .

الفصل الثانى
الإعجاز بالنظم فى آيات الوصية
مدخل الوصية (تعريفها - أهميتها)

وصى فى اللغة : عهد ، و تعنى الفرض المحكم علينا قال تعالى : ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ﴾ (١) معناه : يفرض عليكم ، وأوصى الرجل ووصاه : عهد إليه ، قال رؤبة :

وصانى العجاج فيما وصنى

أراد : فيما وصانى، ومنه : أوصيت له بشىء وأوصيت إليه إذا جعلته وصيك : وأوصيته ووصيته إيصاء وتوصية ، والاسم : الوصاة، والوصاية والوَصاية، والوصية أيضا ، ما أوصيت به ، والوصى : الذى يوصى، والذى يوصى له، وهو من الأضداد، قال ابن سيده : الوصى : الموصِى والموصَى ، والأنثى : وصِيٌّ ، وجمعها جميعا : أوصياء، ومن العرب من لا يثنى الوصية ولا يجمعه وأوصى يوصى إذا أوصل ، فإذا قيل : أوصانى فمعناه أوصلنى إلى علم ما احتاج إلى علمه . (٢)

وأما فى الاصطلاح : فإنها تختلف باختلاف المراد منها ، فإن كانت وصية يرجى تنفيذها بعد الموت فهى : « تمليك مضاف إلى ما

---

(١) النساء / ١١ .

(٢) أساس البلاغة ولسان العرب ، والقاموس المحيط (وصى) .

بعد الموت »[1]، وإن كانت فيما سوى ذلك فهى : « أن يقدم إلى الغير ما يعمل فيه مقترنا بوعظ»[2] ، والمعنى الاول هو المعنى به فى الاية الكريمة : ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ ﴾[3] وقد اهتم القرآن بالوصية وبخاصة عند الموت للاهتمام بها ولذا لم يكتف بالذكر فقط وإنما حبذ الإشهاد عليها من أهل العدل ؛ لأن الوصية معرضة للضياع كلها فألزم الشهود عليها قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الآثِمِينَ﴾ .[4]

والإيصاء : الأمر بشيء يفعل فى غيبة الامر فيؤكد على المأمور بفعله، لأن شأن الغائب التأكيد وأطلق الإيصاء على ما أمر الله به،

---

(١) التعريفات لعلى بن محمد الجرجانى / ٣٢٦ – ط : دار الكتاب العربى – بيروت – .

(٢) معجم مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهانى (وصى) ص /٥٩٨ – ط : العلمية – وروح المعانى ٢/٤/٢١٦ .

(٣) النساء / ١١ : ١٣ .

(٤) المائدة / ١٠٦ .

لأن الناس لم يشاهدوا الله حين فعلهم ما يأمرهم به، فكان أمر الله مؤكدا فعبر عنه بالإيصاء تنبيها لهم على الاحتراز من التفويت فى أوامرا الله ولذلك أطلق على أمر الله الإيصاء فى مواضع كثيرة من القرآن . (١)

أهمية الوصية :

الوصية أمر له أهميته فى الإسلام فقد حذر - ﷺ - من عنده من متاع الدنيا شيء ألا يبيت إلا ووصيته تحت رأسه .

كما نبه القرآن الكريم على المحافظة على تنفيذ وصية الموصين حين أشار إلى ذلك فى قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا ﴾ . (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ١٣٤/٨ .

(٢) البقرة / ١٨٢ .

المبحث الأول : الوصية فى الأموال

وقد ابتدأنا بها لمسيس الحاجة إليها مع تأخرها لفظا ومعنى ، وعنينا بدرس الوصية مجموعة الأوامر والفروض التى جاءت بلفظ (وصى)، أو اى من مشتقاتها وعلة التقديم ما وجدناه من وضع هذه الوصية دبر الأذن ، والإغراق فى حب المال والأثرة عليه ، وكان ماكان من معاداة الابن لأبيه، وقتل الأخ لأخيه ، وكثرة التنازع ، وتفش التقاطع ، حتى إنه لقلماء وجدت أخا يعود أخاه ولاحول ولا قوة إلا بالله .

قال تعالى : ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ . (١)

استهلت هذه الوصية بالعهد والأمر فى ﴿ يُوصِيكُمُ ﴾، حيث عبر بالمضارع وأراد الأمر فإنه « يتضمن الفرض والوجوب كما تتضمنه لفظة أمر (٢) وعدل عن الأمر إلى الإيصاء، لأنه أبلغ وأدل على

---

(١) النساء / ١١ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/٣٣ - ت : المجلس العلمى بفاس بالمغرب - .

الاهتمام وطلب الحصول بسرعة [١] والآية فيها تفصيل بعد إجمال فإنه جل شأنه لما أجمل فى قوله (للرجال نصيب) فكأنها بمنزلة المقدمة، ولذا جاءت على الفصل جملة ﴿ يُوصِيكُمُ ﴾، لأن كلا الموقعين مقتض للفصل [٢] وهى بيان للإجمال فى (للرجال نصيب) [٣] وفى ﴿ يُوصِيكُمُ ﴾ إجمال يعقبه التفصيل ، فإنه جل شأنه لما أجمل فى ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ﴾ كان السؤال : ماذا نفعل ؟

وكانت الإجابة تتمة الآية توضح ما أجمل فى صدرها؛ ولأن الموقف لا يتحمل الإطالة حيث الأمر، وحيث الفراق، وتقسيم شىء يعز على الإنسان مفارقته جاء الكلام على الإيجاز – إيجاز حذف –، فإنه والله أعلم جاءت الآية « على حذف مضاف أى فى أولاد موتاكم – والدليل على الحذف عقلى – ؛ لأنه لا يجوز أن يخاطب الحى بقسمة الميراث فى أولاده ويفرض عليه » . [٤]

﴿فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ﴾ : هذا تفصيل بعد إجمال وبيان بعد إبهام» [٥] إذ قدم المعمول لاعتبارات عدة وجاء

---

(١) ينظر روح المعانى للألوسى ٢١٦/٤/٢ – ط : دار الفكر – والتحرير والتنوير ٢٥٦/٤ .

(٢) ينظر تحرير التحبير ٢٥٥/٤ .

(٣) روح المعانى ٢١٦/٤/٢ .

(٤) البحر المحيط ١٨٠/٣ – ط ثانيه ١٤١٣هـ/١٩٩٢م – نشر دار الكتاب الإسلامى بالقاهرة – .

(٥) نفسه .

الفاعل .. لفظ الجلالة – مرفوعا للتعظيم ، ونكر المتعلق فى (فى أولادكم) ليشمل الذكر والأنثى إذ لوعرف لانصرفت (ال) إلى المعهود فى أذهانهم وما كانت عليه طبيعتهم من حسم وتقديمهم للذكور، وقدم الأولاد على الآباء والأولى التأخير، وإنما قدمت الأولاد لتعلق الآباء بهم [1] كما أفاد التقديم الاختصاص، والأولاد هنا على المجاز وكذلك الآباء بعدها ، إذا لو كان على الحقيقة لدخل ابن الإبن مع الابن والجد مع الأب، وذلك لاتفاق الصحابة على أن الجد ليس له حكم » . [2]

ولعل قائلا يقول : هلا قال : للأنثيين مثل حظ الذكر ؟

ولو كان ذلك لكان فيه بيان نقص الأنثى ولكنه لما شاع بين العرب توريثهم الذكور وحرمان الإناث جاء التقديم لنكتة لطيفة وهى الإيماء إلى أن حظ الأنثى صار فى اعتبار الشرع أهم .

– ﴿ للذكر ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم ،وقدم لمزية فيه ، لأنه القائم بالإعالة وللتنبيه من أول الأمر على أن الذكر صاحبه شريك » [3] ، وقوله ﴿ للذكر ﴾ معناه للذكر منهم فحذف الراجع إليه، لأنه مفهوم، كقولك : السمن منوان بدرهم » [4] و (مثل) صفة لمبتدأ محذوف مؤخر : أى حظ ، وهذه الجملة هى كالموضحة للأولى فهى فى محل نصب مقول ﴿ يوصيكم ﴾ ، لأنها بمعنى القول :–

---

(١) مفاتيح الغيب ٩/٢١١ .
(٢) البحر المحيط ٣/١٨٠ .
(٣) تحرير التحبير ٤/٢٥٧ .
(٤) مفاتيح الغيب ٩/١٧١ .

ولكان النص على خلاف ماوافق هوى المخاطبين من تفضيل للذكور ولذا كان التقديم ليرضى غزيزه لديهم مع سل سخيمة الحزن بتوريث الأنثى ، وإنما قالت لهم ، يكفى الذكور بأن ضوعف لهم فى ميراثهم هذا من جهة .

ومن جهة أخرى كان البدء به لما للذكر من فضل .

وفى النص إيجاز قصر - يدركه العقل - حيث بينت الآية ما يخص الإناث مما يفهم معه أن الذكور على خلاف ذلك ، فإن قوله : ﴿ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ .... الخ) يعنى أنه أن لم يكن معهما ذكر ، فإن كان معهما ذكر فالأمر مقضى به أن ﴿ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ﴾ (١)، وإيجاز حذف تم فيه حذف الصفة ، فإن ﴿ مِثْلُ حَظِّ ﴾، « تعرب صفة لمبتدأ محذوف تقديره : حظ مثل حظ (٢)، والحذف دل عليه ما بعده .

وتلاحظ هنا تقديم الخبر ﴿ فَلَهُنَّ ﴾ جواب الشرط المقترن بالفاء ؛ لأنه شبه جملة - جار ومجرور - على المبتدأ ﴿ ثُلُثَا ﴾؛ لتخصيص الحق بهن ، وفى الآية تخصيص بعد عموم ، إذ لما عمم بقوله ﴿ أَوْلَادِكُمْ ﴾ الذى يجمع الذكر والأنثى، وأراد أن يخص الأنثى فقال ﴿ كُنَّ ﴾ حيث أنث الفعل على المعنى .

---

(١) ينظر الكشاف للزمخشرى ٢٣٢/١ - ت : محمد مرسى عامر ، مراجعة د/ شعبان محمد إسماعيل ، ط : دار المصحف بمصر ، طبعة ثانية ١٣٩١ هـ/١٩٧٧م . (٢) البحر المحيط ١٨١/٣ .

﴿ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ﴾، اختيرت كلمة ﴿ فَوْقَ ﴾ ، وهى من الأضداد والتى تحتمل معان عدة ، فتكون بمعنى (دون) مثل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ (١)، أى : « فمادونها - وتكون بمعنى أعظم ، مثل الآية السابقة - ويقال : معناه فما هو أعظم منها - وهو اختيار الفراء - حيث قال :- الاختيار أن تكون ﴿ فَوْقَ ﴾ فى هذه الآية بمعنى : أعظم ؛ لأن البعوضة نهاية فى الصغر» (٢)، وقد بين قطرب أن ﴿ فَوْقَ ﴾ تكون بمعنى (دون) مع الوصف كقول العرب : إنه لقليل ، وفوق القليل ، ولا تكون بمعنى دون مع الأسماء كقول العرب : هذه نملة وفوق النملة . (٣)

وعليه فإن ﴿ فَوْقَ ﴾ فى هذه الآية تنصرف إلى ما فوق الاثنتين من الإناث حيث جاء قبلها وبعدها ﴿ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ ﴾ ، وتدخل الاثنتان خلافا لمن زعم أن الآية لا تشتمل على الاثنتين ، وأنها تعنى مازاد على اثنتين ، وحجتنا أن الآية قد بينت فرض الواحدة ، وتكلمت عما زاد على اثنتين ، ولا مانع من دخولهما فى نصيب الثلثين ؛ لأن ذكر ﴿ فَوْقَ ﴾ لا يمنع ذلك ، وشبيه بها قول المولى

---

(١) البقرة / ٢٦ .

(٢) ينظر الأضداد لابن الأنبارى/٢٥٠ - ت : محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط : المكتبة العصرية بيروت . لبنان ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧م - .

(٣) نفسه .

سبحانه : ﴿ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ ﴾ (١) ، والمقصود : اضربوا الأعناق . (٢)

ولذا نرجح وجه الإعراب القائل بأن﴿ فَوْقَ ﴾ : « ظرف مكان منصوب بالفتحة وهو مضاف واثنتين مضاف إليه مجرور وعلامة جره (الياء) ؛ لأنه ملحق بالمثنى، والنون عوض عن التنوين فى المفرد، وشبه الجملة ﴿ فَوْقَ اثْنَتَيْنِ ﴾ في محل نَصْب خبر ثان لكان.

ولا نرجح الوجه الآخر على أنها صفة لنساء ، بتقدير : نساءٌ زائدت على اثْنَتَيْنِ . (٣)

لأنه على الوجه الأخير فإن نصيب النصف للواحدة المفردة ، والاثنتين إذا لم يكن معهما ذكر النصف ، وبالتالى تتساوى الواحدة معهما ، وهذا أبعد عن صفات العدل المتصف بها المولى جل وعلا .

وأما من ذهب إلى أن ﴿ فَوْقَ ﴾ زائدة ، وعليه يكون فى القرآن زيادة ونقص ؟ .

---

(١) الأنفال/١٢ .

(٢) مفاتيح الغيب ٩/٢٢٠ .

(٣) الإعراب المفصل لكتاب الله المرتل لبهجت عبد الواحد صالح ٢/٢٣٨ – ط : دار الفكر بيروت . أولى ١٤١٣هـ/١٩٩٣م – ، وإعراب القرآن وبيانه لمحيى الدين الدرويش ٢/١٧٠ – ط : دار اليمامة ودار ابن كثير بدمشق ، ط : رابعة ١٤١٥ هـ/١٩٩٤م – .

فإن ذلك مذهب واضح البطلان ، فإن المستدل بالزيادة هنا قاسها بأنها قد زيدت فى قوله تعالى﴿ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ ﴾ ، فلا يحتاج فى رد ما زعم إلي حجة لوضوح فساده . (١)

اقتضى الترتيب أن بعد أن ذكر الفروع في الميراث أن يتبع ذلك بالأصول، فإنه سبحانه بعد أن ذكر ميراث الأبناء ذكر عقيبه ميراث الآباء فقال : ﴿ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ ﴾، جاء النص الكريم على التقديم والتأخير، إذ قدم الخبر ﴿ وَلأَبَوَيْهِ ﴾، وأخر المبتدأ ﴿ السُّدُسُ ﴾ وتوسط البدل - بدل بعض من كل، ولذلك أتى بالضمير حتى لا يتوهم أنه بدل شيء من شيء - بينهما للبيان ، وللتفصيل بعد الإجمال، وذلك للتأكيد وللتشديد فى هذا الأمر، وكذلك للزجر للمخالف لهذا الأمر (٢)، وقد أطنب بذكر البدل ﴿ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا ﴾ : « لأنه لو قيل : لأبويه السدس ، لكان ظاهره اشتراكهما فيه ، ولو قيل : ولأبويه السدسان، لأوهم قسمة السدسين عليهما على التسوية وعلى خلافها .

وقال ﴿ وَلأَبَوَيْهِ ﴾ وإنها لتعنى : « أبوه وأمه ، وغلب لفظ الأب فى التثنية ، كما قيل : القمران فغلب القمر للتذكير » . (٣) ولما كانت الفنون البديعية لا تقل أهمية ومكانة عن مسائل علم المعانى ، وصور

---

(١) ينظر البحر المحيط لابى حيان الأندلسى ١٨٢/٣ .

(٢) ينظر مفاتيح الغيب ٢٢٠/٩ .

(٣) ينظر البحر المحيط ١٨١/٣ .

البيان، إذ نرى أن كلمة (ثلث) و (سدس) ، قد جاءتا فى موضعهما لا تحيدا عنه قيد شعرة ، وهما من فنون البديع المعروف بفن العكس وقد عرفه البلاغيون بأنه « أن يكون الكلام إذا قلبت حروفه لم تتغير قراءته – وهو غير القلب فى التجنيس ، وفى علم المعانى – » [١] : والقلب هنا قلب (الجل) لا قلب (الكل) كما سماه الفخر الرازى [٢]، والسكاكى[٣] وأصحاب مدرسته [٤] من بعده ، ولم أوافقهم على ما ذهبوا إليه لأن (ثلث) و(سدس) يمكن قراءة كل منهما طردا أو عكسا ، بيد أن عين الكلمة فى كلتيهما لم تتحرك من موضعها ، إذا لم يتحرك الكل من موضعه ، وإنما الذى تحرك (فاء) الكلمة ، و(لام) الكلمة ، وهذا ما جعلنا نوافق العلامة الدمياطى [٥] ونطلق على هذا النوع مقلوب الجل .

لكن شيئا ما فى الآية يلح علينا أن نقف على حقيقة أمره ، لماذا قدمت الوصية على الدين ، والواقع بخلاف ذلك ، وأمر الرسول – ﷺ – بسداد الدين عن الميت حتى يبرد جلده ؟

والجواب : لأنها – أى الوصية – لما كانت مشبهة للميراث في كونها مأخوذة من غير عوض ، كان إخراجها مما يشق على الورثة،

---

(١) شروح التخليص ٤/٤٥٩ – ط : دار السرور ، بيروت . لبنان – .

(٢) ينظر نهاية الإيجاز / ٩٥ . (٣) ينظر مفتاح العلوم / ٤٣١ .

(٤) ينظر المصباح /٢٠٠ ، والايضاح / ٥٥٣ ، وشروح التلخيص / ٤/٤٥٩ .

(٥) ينظر الإشارة الآصفية / ٤ .

ويتعاظمهم - ذلك الأمر ، ولا تطيب أنفسهم بها فكان أداؤها مظنة للتفريط بخلاف الدين فإن نفوسهم مطمئنة إلى أدائه فلذلك قدمت على الدين بعثا على وجوبها ، والمسارعة إلى إخراجها مع الدين ، ولذلك اختير العاطف (أو)، الذى يفيد التسوية بينهما في الوجوب ثم أكد ذلك ورغب فيه بما تمت به الآية ﴿ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا .....﴾. (١)

ويرى ابن عطية أنها قدمت - الوصية - لأنها : « كاللازم ليكون لكل ميت ، إذ قد حض الشرع عليها ، وأخر الدين لشذوذه ، وأنه قد يكون ولا يكون فذكر الذى لابد منه » . (٢)

وقدمت الوصية أيضا للتنبيه على أهمية الوصية وتقدمها . (٣)

وفيها أيضا تعريض : « للحكمة فى ذلك وتأنيس للعرب الذين كانوا يورثون على غير هذه الصفة » (٤)، وكررت كلمة الوصية فى الآية للتأكيد وللحث عليها .

أما كلمة ﴿ أَوْ دَيْنٍ ﴾ فإنها وقعت موقع الاحتراس ، ولأجل هذا الاهتمام كرر هذا القيد أربع مرات فى هذه الآيات . (٥)

---

(١) ينظر الكشاف للزمخشرى ١ / ٥٠٩ - ط تهران .

(٢) المحرر الوجيز ٣٨/٤ .

(٣) ينظر التحرير والتنوير ٢٦١/٤ .

(٤) البحر المحيط ١٨٦/٣ .

(٥) المحرر الوجيز ٣٨/٤ .

وجه الارتباط بين آيتى الميراث :

الآيتان مرتبطتان ببعضهما تمام الارتباط ، وختمت كل منهما يناسب ما أثارته من موضوع، حيث ختمت الأولى بقوله تعالى : ﴿عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ والثانية بقوله : ﴿عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾، فإنه لعل ﴿عَلِيمًا﴾ الأولى يقصد بها : العلم بصالح العباد بما قضى وقدر وحكم به، بينما ﴿عَلِيمٌ﴾ الثانية - والله أعلم - لعله جل شأنه أخبر أن سيكون هناك الجور لا محالة حيث المال المحبب للنفوس - ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾[1] و ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾[2] -، ولذا ناسب ﴿عَلِيمًا﴾ الأولى أن يتبعها بـ ﴿حَكِيمًا﴾، أى فى كل ما فرض وقسم من المواريث وغيرها .

بينما أتبع الثانية : ﴿عَلِيمٌ﴾ بـ : ﴿حَلِيمٌ﴾ بأنه جل شأنه لا يعجل بنزول العقوبة بالعبد، وإنما يمهله ، وفيها من الوعيد ما فيها حيث العاقل لا يغره حلم الله وعلمه [3]، وكون الآية يذكر فيها علم الله فإن فى ذلك دلالة معرضة بالإنسان أن العلم «دليل على مجازاة العبد على مضارته » . [4]

---

(١) آل عمران /١٤ .

(٢) الفجر / ١٩ : ٢٠ .

(٣) ينظر الكشاف ٢٣١/١، ٢٣٤.

(٤) البحر المحيط ١٩١/٣ .

مع الأخذ فى الاعتبار أن كل آية ختمت بما يوافق صدرها، إذ ختمت الأولى بقوله ﴿ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ﴾ ، بينما ختمت الثانية بقوله تعالى :﴿ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ ﴾ .

لفظ ﴿ فَرِيضَةً ﴾ فى الأولى أقوى وآكد فى تحقيق التوريث ، إذ رعاية حال الأولاد أولى، وإن كان الصنف الثانى الذى تكلمت عنه الآية - الزوجة، والزوج، والأخوة، والأخوات، والكلالة - أحق بالرعاية إلا أنها ليست فى مرتبة الأولى، ولذا ختمت بـ : ﴿ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ ﴾ . (١)

وذهب الطاهر بن عاشور إلى أن ختمها بـ (وصية) بالنصب على أنها مفعول مطلق جاء بدلا من فعله ﴿ يُوصِيكُمُ ﴾ فتكون الآية قد ختمت بما بدئت به ، وهو المعروف عند البديعيين بـ (رد العجز على الصدر) (٢)، وما أظن الإمام الطاهر بن عاشور حالفه التوفيق بجعل هذه الآية شاهدا على رد العجز على الصدر ؛ لأن رد العجز على الصدر يلزم أن تكون إحدى اللفظتين فى آخر الكلام، والثانية فى صدر البيت أو حشوه أو صدر المصراع الثانى، وكلمة ﴿ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ ﴾ ليست واقعة فى نهاية الآية حتى يطلق عليها ولو تجوزا رد عجز على صدر) . (٣)

---

(١) ينظر التفسير الكبير ٩/٢٣٤ .

(٢) ينظر التحرير والتنوير ٤/٢٦٦ : ٢٦٧ .

(٣) ينظر فن (رد العجز على الصدر) فى مظانه .

من خصائص النظم فى الآيتين الكريمتين :

– تعدد جمل الشرط مع تقديم الخبر على المبتدأ فى جملة الشرط للاختصاص، وجعل لكل جملة جوابا مستقلا ، وذلك لتحديد الأنصباء التى حددها الشرع .

هذا بخلاف ما جاء فى غير هذا الموطن من القرآن الكريم من وقوع جواب الشرط جوابا وجزاء لجملتين فى آن واحد – مثل قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ (١) – ولم يجر ذلك فى الآية الكريمة ، أن جاء جواب الشرط لفعلى شرط فى آية المواريث فى سورة النساء إلا فى موطن واحد اتحد فيه النصيب من الميراث ، صحبه إيجاز حذف دل عليه الكلام السابق فى قوله المولى سبحانه : ﴿ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ ﴾ (٢) فإن قوله سبحانه : ﴿ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ ﴾ ، على تقدير : أو امرأة تورث كلالة ، وكذلك قوله ﴿ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ ﴾ فإنها على تقدير : ولها أخ وأخت ﴾.

وجاءت (له) بالإفراد والعود إلى المفرد المذكر لمعان منها :

* أنها جاءت للتغليب ، وذلك مثلما قلنا من قبل فى (ولأبويه) .

* لأنه لو قال (لهما) لأوهم خلاف المراد ولم تكن الدلالة على الأنصباء واضحة .

---

(١) النساء / ١١٢ .

(٢) النساء / ١٢ .

- لما كانت الآيات هنا بصدد فرض فرائض جاءت على الأمر - ﴿ يُوصِيكُمُ ﴾ - ولما نبه لها بـ ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ ، جاءت على الحقيقة ، وإن كانت كلمة (أولادكم) حقيقة فى الولد ، ومجازا فى ولد الابن، لكن صرف اللفظ هنا إلى الحقيقة ؛ لأن اللفظ الواحد لا يجوز أن يستعمل دفعة واحدة فى حقيقته وفى مجازه معا . (١)

ويتفرع بناء على ما سبق حكم فقهى ألا وهو أن الآية لا تخاطب ابن الابن إلا عند عدم الابن . ومثل ذلك فى الأب فإنه يطلق على الجد - أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ - . (٢)

- ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ﴾ ليس ذلك على العموم ، وإنما خصص العموم بالسنة المطُهرة ، إذ منع صاحبها - ﷺ - التوارث بين الأبناء والآباء فى أربع حالات :

١- الاختلاف فى الدين .

٢- الاختلاف فى الحرية والعبودية .

٣- القتل على سبيل العمد .

٤- ميراث الأنبياء .

- ومن خصائص النظم أيضا فى هذه الآيات ، أنها تخلو من المبهمات ؛ لأنها فروض ، وعليه فإن من ذهب إلى أن الضمير فى

---

(١) مفاتيح الغيب ٩/٢١٥ . (٢) البقرة / ١٣٣ .

﴿ كُنَّ ﴾ و﴿ كَانَتْ ﴾ مبهمان ، ذهب إلى أن ﴿ نِسَاءً ﴾و ﴿ وَاحِدَةً ﴾، على سبيل التفسير لهما ، وعليه فتكون ﴿ كَانَ ﴾ تامة [1]، وتكون حينذاك ﴿ وَاحِدَةً ﴾ بالرفع ، وهى قراءة نافع . [2]

- الإطناب فى ﴿ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ﴾ فقد جاءت على سبيل الاعتراض بين ذكر الوارثين ، وبين قوله تعالى : ﴿ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ﴾ والاعتراض جاء للتأكيد لوجوب تنفيذ الوصية [3]، والعلاقة بين ما اعترض واعترض بينه أن ذكر الأنصباء بنسبه المختلفة ولا تهتدى العقول لهذا الاختلاف فى النسب، ولربما يرى الإنسان أن لو وقعت القسمة على هذا الوجه لكان أولى.

وذلك لأنهم درجوا على ذلك من قبل من تقديم بعض وتأخير آخرين بل منعهم ، فكان هذا الاعتراض ليزيل الله به الشبهة ، وليكون إشارة لهم لأن يتركوا ما جبلت عليه طباعهم، وأن تقسم التركه على مستحقيها على حسب ما قضى الله، ولذا عقب سبحانه بقوله : ﴿ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ﴾ إشارة إلى وجوب الانصياع لهذا الأمر الذى قدره الله وأمر به الشرع الحكيم .

هذا عند من رأى أن فى الآية اعتراضاً ، وأنه جاء بعد أن بين أنصباء الأولاد والأبوين .

---

(١) ينظر الكشاف ١/٤٧٠ - ط : العلمية .

(٢) مفاتيح الغيب ٩/٢١٥ . (٣) ينظر روح المعانى ٢/٤/٢٢٧ .

ويمكن حمل الآية على التعريض بتصحيح معتقدهم « بأنفعية الثانى – الأبناء – مبنيا على عدم الدراية ، وقد أشير إلى ذلك حيث عبر عن الأنفعية بأقربية النفع تذكيرا لمناط زعمهم – وتعيينا لمنشأ خطأهم ومبالغة فى الترغيب المذكور بتصوير الصواب الآجل بصورة العاجل لما أن الطباع مجبولة على حب الخير الحاضر كأنه قيل : لا تدرون أيهم أنفع لكم فتحكمون نظرا إلى ظاهر الحال وقرب المنال بأنفعية الثانى مع أن الأمر بخلافه فإن ما يترتب على الأول – الأباء – الثواب الدائم فى الآخرة ، وما يترتب على الثانى العرض الفانى فى الحياة الدنيا ، والأول لبقائه هو الأقرب الأدنى ، والثانى لفنائه هو الأبعد الأقصى » . (١)

– وفيها أيضا أن تكون ﴿آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ﴾ : إما مسند إليهما قدما للاهتمام، وليتمكن الخبر فى ذهن السامع إذ يلقى سمعه عند ذكر المسند إليهما بشراشره .

وإما أن تجعلهما خبرين عن مبتدأ محذوف هو المسند إليه على طريقة الحذف المعبر عنه عند علماء المعانى بمتابعة الاستعمال ، وذلك عندما يتقدم حديث عن شىء ثم يراد جمع الخبر عنه كقول الشاعر :

فتى غير محجوب الغنى عن صديقه
ولا مظهر الشكوى إذا النعل زلت

(١) ينظر روح المعانى ٢/٤/٢٢٨ .

بعد قوله :

سأشكر عمراً إن تدانت منيتي

أيادي لم تمنن وإن هي جلت

أي المذكورون أبناؤكم وأبناؤكم لاشك في ذلك . (١)

- الالتفات في الانتقال من الخطاب إلى الغيبة حيث خاطب الرجال فقال لهم : « ولكم نصف ما ترك أزواجكم » ، وانتقل إلى التحدث عن النساء بضمير الغيبة فقال : « ولهن الربع مما تركتم ... الخ » .

- الإيجاز في قوله : ﴿ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ ﴾ أي لمجموعهن الربع مما ترك زوجهن، وكذلك قوله : ﴿ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ﴾ ، وفي ذلك يقول العلامة الطاهر بن عاشور : « وهذا حذق يدل على إيجاز الكلام » . (٢)

- في الآية حقيقة شرعية في مصطلح ﴿ كَلَالَةً ﴾ ، حيث انتقل من المعنى الأصلي للكلمة عند المعجميين وهي : القرابة غير القربى إلى الميت يرثه غير أصوله وفروعه ، وقد استشهد له بقول الشاعر : (٣)

فإن أبا المرء أحمى له

ومولى الكلالة لا يُغْضَبُ

---

(١) ينظر التحرير والتنوير ٢٦٢/٤ .

(٢) نفسه . (٣) نفسه ٢٦٣/٤ .

- ﴿فِي أَوْلادِكُمْ﴾ ، فيها استعارة فى الحرف ﴿فِي﴾ حيث استعيرت (للام)، والتقدير : لأولادكم، ومثله مجىء (فى) استعارة لـ (على) فى : ﴿ولأصلبنكم فى جذوع النخل﴾ أى (على) . (١)

- العدول فى لفظة ﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ ، عن وصية من الله مع إن وصية جاءت فى مقدمة الآيات بمعنى ﴿فَرِيضَةً﴾ ؛ لأنه بعد أن كان ما كان من أمر التقسيم ، لزم أن ينبه الناس إلى أن يلتزموا بما فرضه الله وذلك لكون الفرض أوضح وأقوى وآكد من لفظ الوصية ، وإن قيل : إن التعبير بالوصية إن الوصية أقوى من الفرض للدلالة على الرغبة وطلب الحصول فإن الغرض أظهر فى دلالته وأسرع فى فهمه من غيره . (٢)

- ثمت أمر آخر فى آيات المواريث نوجه النظر إليه ألا وهو الاتصال الحاصل بين الميت ومن تم ذكرهم من الورثة ، نجد أن الآية قد جاءت بهم على أحسن الترتيبات ، وأوفى التقسيمات وأتمها، وذلك أن صلة الوارث بالميت إما معقودة بنفسها بدون وساطة أو بوساطة ، والأخير ينقسم إلى قسمين إما عن طريق النسب أو الزوجية ، فقد تجمع لديك إذا ثلاثة أقسام لا رابع لها .

الأول : وبدأت به الآية ؛ لكونه الأعلى والأشرف ، والمال فيه لا يفوت المورث ؛ لأنه فى بقية منه ، أو فى بقية هو منها ، وذلك قرابة الولادة ، ويدخل فيها الأولاد والوالدان .

---

(١) ينظر روح المعانى ٢/٤/٢١٦ . (٢) ينظر روح المعانى ٢/٤/٢٣٢ .

الثانى : وقد ثنت به الآية، وإن كان الاتصال بهذا القسم للميت عرضا يمكن أن يخصم فى أى وقت إلا أنه أعلى رتبة من القسم الذى يليه، ولا يرقى هو إلى القسم الأول لكون الأول ذاتى الاتصال، والذات تقدم على العرض فى كل الأحوال، وهذا القسم ينحصر فى الاتصال بالميت عن طريق الزوجية .

الثالث : وهو ما كان الاتصال فيه بالميت بوساطة الغير ، وهذا القسم هو المعروف فى الميراث باسم (الكلالة) .

وقد علل العلامة محمود شكرى تأخر هذا القسم عن سابقية بوجوه هى :

أ- **أحدها** : أن الأولاد ، والوالدين ، والأزواج والزوجات لا يعرض لهم السقوط بالكلية ، وأما الكلالة فقد يعرض لها السقوط بالكلية .

ب- **وثانيها** : أن القسمين الأولين ينتسب كل واحد منهما إلى الميت بغير واسطة ، والكلالة ينتسب إلى الميت بواسطة ، والثابت ابتداء أشرف من الثابت بواسطة .

وكلام الشيخ محمود هنا فى محل نظر، وذلك أن القسم الثانى هو أيضا بواسطة الزوجية التى سبق أن أشرنا إليها، فلم جعلها الشيخ بلا واسطة، وكان الأولى به أن يقول : لما أن كانت الواسطة فى الثانى الزوجية وفيها شبه اتصال دائم كالاتصال الدائم بين

الولد وأبويه، بل إن القرآن صورها بالالباس فقال : ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾[1] لشدة الاتصال وكما قال النابغة الجعدى : [2]

إذا ما الضجيع ثني عطفها

تثنت فكانت عليه لباسا

فكأن الواسطة حين ذاك كأن لم تكن .

جـ- وثالثها : أن مخالطة الإنسان بالوالدين ، والأولاد ، والأزواج، والزوجات أكثر وأتم من مخالطته بالكلالة، وكثرة المخالطة مظنة الألفة والشفقة ، وذلك يوجب شدة الاهتمام بأحوالهم . فلهذه الأسباب وأشباهها أخر الله سبحانه ذكر ميراث الكلالة عن ذكر القسمين الأولين .

فما أحسن هذا الترتيب وما أشد انطباقه على قوانين المعقولات . [3]

---

(١) ينظر روح المعانى ٢/٤/٢٣٣ .

(٢) البقرة / ١٨٧ .

(٣) نسبه الزمخشرى للجعدى فى الكشاف ١/٢٢٨ – ط : العلمية – ، بينما لم نجد فى ديوان الجعدى – ت : كرم البستانى ، ط : بيروت ١٩٦٣ – قافية السين المفتوحه ، وأنما وجدنا السين المكسورة وليس منها هذا البيت بالطبع .

المبحث الثانى : الوصايا العشر

الوصايا العشر هى الآيات المذكورة فى سورة الأنعام، وهناك وصايا أخر فى القرآن الكريم تشتمل على معظم الوصايا الموجودة فى سورة الأنعام، لكننا أغفلنا ذكرها ؛ لأنها لم تأت على صيغة الوصية لا ظاهرا ولا مؤولا .

قال تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ . (١)

هذه الآيات اشتملت على وصايا مهمه هى عظائم الأمور فى الأديان السماوية جميعها ، فلم يخل أى كتاب منزل من ذكرها ، قال ابن عباس – رضي الله عنهما – : « هذه الآيات محكمات لم ينسخهن شىء من جميع الكتب ، ومثل : هن المحكمات التى ذكرها الله فى سورة آل عمران ، أجمعت عليها شرائع الخلق ولم تنسخ قط فى ملة، وقيل إنها العشر كلمات المنزلة على موسى (٢)، وقيل : « إنهن أم الكتاب من عمل بهن دخل الجنة ، ومن تركهن دخل النار » . (٣)

---

(١) الأنعام / ١٥١ .

(٢) ينظر البحر المحيط ٢٤٩/٤ .

(٣) ينظر الكشاف ٧٧/٢ .

علاقة الآيات بما قبلها : لما أن ادعى المشركون ما ادعوا من تحريم بعض الأنعام، جاءت الآيات هنا على الاستئناف للانتقال من إبطال تحريم ما ادعوا تحريمه من لحوم الأنعام إلى دعوتهم لمعرفة المحرمات .

ومناسبة هذا الانتقال ظاهرة فى أن المقام مقام توجيه بتعليم وإرشاد ، ولذا كان الأمر للرسول - ﷺ - بـ ﴿ قُلْ ﴾ استرعاء للسمع [1] ، ويمكن حمل الآية على الأسلوب الحكيم بتلقى السامع بغير ما يترقب ، فإنه بعد ما ظهر بطلان ما ادعوا أن يبين لهم من المحرمات ما يقتضى الحال بيانه ، إيذانا لهم بأن حقهم اجتناب هذه المنهيات .

ويرى ابن عطية أن الآية مستأنفة ، وأن الخطاب ليس لليهود ، وأنما هو أمر من الله عز وجل نبيه - ﷺ - أن يدعوا جميع الخلق إلى سماع تلاوة ما حرم الله بشرع الإسلام المبعوث به إلى الأحمر والأسود . [2]

واشفع الأمر ﴿ قُلْ ﴾ ، باسم فعل الأمر ﴿ تَعَالَوْا ﴾ : « للاهتمام بالغرض المنتقل إليه» [3]، وشاع إطلاق (تعال) على طلب المجىء مجازا بعلاقة الإطلاق فهو مجاز شائع صار حقيقة عرفية [4]، وقال

---

(١) التحرير والتنوير ١٥٥/٨ وروح المعانى ٥٣/٨/٤ .

(٢) المحرر الوجيز ١٧٧/٦ .

(٣) التحرير والتنوير ١٥٦/٨ . (٤) نفسه .

الزمخشرى : « إنها من الخاص الذى صار عاما، وأصله أن يقوله من كان فى مكان عال لمن هو أسفل منه ثم كثر واتسع فيه حتى عم » .(١)

وقد اختلف فى (تعال)، فذهب فريق إلى أنها فعل أمر ، بينما قال آخرون : إنها اسم فعل أمر ، يقول ابن فارس : « يقال : إنها أمر ... من علوت ... فإذا أمرت قلت : تعال ... قالوا وكثرت فى الكلام حتى صارت بمنزلة (هلم) » (٢). و(تعال) فعل أمر مفتوح الآخر دائما، ومن هنا اعتبر النحويون أبا فراس الحمدانى قد لحن لما قال :

أيا جارتا ما أنصف الدهر بيننا

تعالى أقاسمك الهموم تعالى

وتقرأ ﴿ تَعَالَوْا ﴾ بضم اللام ، وهى من القراءات الشاذة ، والوجه الذى قرأ به أهل المجاز بكسر اللام أقل فى الاستعمال من الوجه الأول ، ولكن لا يلزم من كونه قليلا أن يكون المتكلم به لاحنا، وعلى ذلك يكون قول أبى فراس – السابق – غير لحن ، ولكنه جار على لغة ضعيفة قليلة الاستعمال . (٣)

ثم عبر سبحانه عن هذا المحرم بـ ﴿ مَا ﴾ التى هى اسم موصول

---

(١) ينظر الكشاف ٧٦/٢ .

(٢) ينظر الصاحبى / ١٠٥ – ط : العلمية . أولى ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م .

(١) ينظر إعراب القرآن للدرويش ٢٦٧/٣ والإعراب المفصل ٣٥٦/٣ .

بمعنى (الذى)، وهى أقل منها فى عدد الحروف ، وكأن الأمر لا يتحمل التأخير ، ويقتضى سرعة الإبلاغ، مما اختير معه من الأسماء الموصولة القليلة الحروف التى تؤدى الغرض المرجو منها، وتوالت بعدها الوصايا بإيجاز يصل إلى الغرض من أقرب طريق، فقد رسمت الآيات منهج إصلاح الحالة الاجتماعية بين الناس، وذلك فى النهى عن الشرك، والأمر بالإحسان إلى الوالدين، والنهى عن قتل الأولاد، وعن قتل النفس التى حرم الله إلا بالحق .

ثم تناولت الوصايا ما ينظم تعامل المجتمع بما يحقق لهم السعادة وينشر معالم الحب بينهم وذلك بالمحافظة على الضعيف – اليتيم – ، وايفاء الكيل والميزان ، والنصفة فيما بين الناس عند التقاضى ، والوفاء بالعهد .

وختمت الوصايا بالوصية الجامعة لمعالم طريق الهدى والفلاح ، وذلك باتباع طريق الله المستقيم ، والنهى عن الطرق المعوجة التى تؤدى بصاحبها إلى الهلكة لا محالة .

ولعل سائلا يسأل ما قيمة التعبير بـ ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ ؟

وللجواب على ذلك ، نقول : إن استخدام الأمر ﴿ قُلْ ﴾ بما يحمل من معنى الاستعلاء ؛ لأنه أمر صادر من العلى الحكيم إلى رسول الله – ﷺ – ليبلغه ، إذ مهمة الرسل البلاغ ، ولو لم يفعلوا فما بلغوا رسالة الله ، ولو تقولوا على الله ما لم يقل لأخذهم باليمين ،

ثم قطع منهم الوتين ، وما أحد يستطيع أن يحجزهم عن الله رب العالمين ، و ﴿ قُلْ ﴾ تنفى عن الرسل صفة الافتراء ، وأنهم ليسوا كالمشركين الذين يحللون ويحرمون ما يشاءون ، وأن ﴿ تَعَالَوْا ﴾ بعد ﴿ قُلْ ﴾ تحمل على الاستعلاء، وتحث على الارتفاع عن الدنايا ، والتمسك بمحاسن الأخلاق وجميل الصفات ، مع تحبب وتودد لهم يؤلف قلوبهم فى أن الغرض من هذه الوصايا إنما هو الرقى بهم إلى أعلى مصاف الإنسانية الكاملة .

أما ﴿ أَتْلُ ﴾ فإنما أكد أمر التبليغ ؛ لأنه لم يقصد بـ ﴿ تَعَالَوْا ﴾ الحضور على حقيقته إلى شخص النبى - ﷺ - وإنما المقصود الحضور المجازى - تعالوا : مجاز مرسل لعلاقة الإطلاق والتقييد حيث استعمل المقيد (الحضور الحقيقى) فى المطلق (الانقياد والاستماع) ، وقد يكون استعارة - وإن حمل الأمر كله على حقيقته كما رأى الألوس فإنه يكون تعريضا بهم ، وبيانا لهم بأنهم فى مستنقعات الجهل والذل ولو استجابوا لترقوا إلى العلم والعز . (١)

﴿ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ ، كان من المتوقع أن تأتى الوصايا إما بالأمر كلها وأما بالنهى ، لكن الذى نلحظه أن الأوامر جاء معها النواهى ، ومن خلال ذكر الأوامر مع النواهى يعلم منها تجريم ضدها، وكل وصية جاء معها ما يناسب خطرها وأهميتها من حيث كونها تحتاج إلى أمر أو إلى نهى .

---

(١) ينظر روح المعانى للألوس ٥٣/٨/٤ .

وأما ﴿ عَلَيْكُمْ ﴾ ؟ فقد حملها بعض العلماء على أنها اسم فعل أمر بمعنى : (الزموا) ، وأنها منقطعة عما قبلها ، وأنها دائرة مع بقية الوصايا فيكون المعنى : عليكم أن لا تشركوا بالله شيئا ، وعليكم بالوالدين إحسانا ... الخ .

ولما أن كان شغل المشركين الشاغل لهم هو تحريم بعض المطعومات ، جاءت الآيات الكريمات « إشارة الى أن الاهتمام بالمحرمات الفواحش أولى من العكوف على دراسة أحكام الأطعمة تعريضاً بصرف المشركين همتهم إلى بيان الأطعمة ، وتضييعهم تزكية نفوسهم . (١)

﴿ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ قضية حرص الأنبياء عليها فكان أسمى مطلبهم التوحيد الخالص لله تعالى، فقد أخبر المولى سبحانه عن أن هذا ديدن جميع الرسل من لدن نوح بل من آدم - ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ﴾ ، وإبراهيم ﴿ ووصَّىٰ بها إبْراهيمُ بنيه ويَعْقُوبُ ﴾ ، ويعقوب ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهداء إِذْ حضر يعْقُوب الْموْتُ إِذْ قال لبَنيه ما تَعْبُدُون منْ بعْدي قَالُوا نعْبُدُ إِلهك ﴾ ، وسواء كانت وصية إبراهيم - عليه السلام - ، ويعقوب - عليه السلام - عند الموت أو مظان خشية الموت فإن الوصية منهما تنهى عن مفارقة الملة الحنيفية .

---

(١) التحرير والتنوير ١٥٧/٨ .

وهنا فى هذه الوصايا استهلت الآيات بالابتداء بالنهى عن الإشراك بالله تعالى ؛ لأن صلاح الاعتقاد ينبنى عليه صلاح العمل، وفيها من البلاغة التوهيم - وهو أن يأتى المتكلم فى كلامه بكلمة يوهم ما بعدها من الكلام أن المتكلم أراد تصحيفها ومراده على خلاف ما يتوهم السامع فيها (١) - ويأتى على وجوه مختلفة منها التصحيف، واختلاف الإعراب ، والاشتراك .

وقد وقع التوهم فى فهم :﴿أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ فإن ظاهر الكلام يدل على تحريم نفس الشرك، وملزومه تحليل الشرك، وهذا محال، وخلاف المعنى المراد» .

والتأويل الذى يزيل هذا التوهم هو :

أن الوصايا المذكورة فى سياق الآية وما بعدها ما حرم عليهم ، وما هم مأمورون به ، فإن الشرك بالله ، وقتل النفس المحرمة ... الخ ، من الأفعال المأمور بها أمر وجوب ، ولو جاء الكلام بغير (لا) لانبتر واختل وفسد معناه ، فإنه يصير المعنى : حرم عليكم الشرك والإحسان للوالدين ، وهذا ضد المعنى المراد ، ولهذا جاءت (لا) التى أوهم ظاهرها فساد المعنى ليلجأ إلى التأويل الذى يصح به عطف بقية الوصايا على ما تقدم .

وفى هذا يرى العلامة فخر الدين : أن الكلام تم وانقطع عند (أتل ما حرم ربكم) ، ثم ابتدأ فقال (عليكم ألا تشركوا) ، وفى هذه

---

(١) تحرير التحبير/٣٤٩ ، بديع القرآن/١٣١ ، شروح التخليص ٤/٤٦٩ .

الحالة تكون (عليكم) اسم فعل أمر بمعنى : الزموا - ، أو أنه تم عند (عليكم) وابتدأ عند (ألا تشركوا) أى : لئلا تشركوا ، والتقدير : أتل ما حرم ربكم عليكم لئلا تشركوا به شيئاً ، أو أن تكون (أن) بمعنى : أى ، ويكون تقدير الآية : أتل ما حرم ربكم عليكم : أى لاتشركوا . (١)

وأما قوله ﴿ بِهِ شَيْئًا ﴾ فإنها كلمة عامة متضمنة معنى (من شىء) وقد أغنت عن مؤكد معها ، فلم تحتج إلى (من) ، وأن كانت تأتى معها أحيانا لإفادة زيادة العموم كما فى قوله سبحانه : ﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ . (٢)

ثم عقب سبحانه بعد النهى عن الإشراك به إلى ذكر الوصية بالوالدين ، وقد كررت هذه الوصية فى القرآن الكريم فى أكثر من موضع - سورة البقرة ، والنساء ، والإسراء ، والعنكبوت ، ولقمان ، والأحقاف - وذلك لما للوالدين من أهمية فى هذا الدين ، وجاء قوله تعالي : ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ لبيان المقصد الأسمى من الآية « أن المحرم هو الإساءة للوالدين ، وإنما عدل عن النهى عن الإساءة إلى الأمر بالإحسان اعتناء بالوالدين » . (٣)

---

(١) ينظر مفاتيح الغيب ١٩٠/١٣/٧ ، وحاشية محيى الدين شيخ زاده على البيضاوى ٢٢١/٢ - نشر المكتبة الإسلامية محمد أزدمير . ديار بكر - تركيا .

(٢) الأنعام / بعض الآية ٥٢ . (٣) التحرير والتنوير ١٥٨/٨ .

وفى الآية حذف المسند لدلالة ما بعده عليه ، وقدم المتعلق للاهتمام بشأنه ، فإن ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ ﴾ جار ومجرور متعلق بفعل محذوف تقديره : وأحسنوا بالوالدين إحسانا .

تنويه : من عظيم النسق القرآنى - وبديع نظمه ، أن كررت الوصية بالوالدين فى أكثر من موضع من كتاب الله الكريم ، وفى كل مرة تأتى عقيب النهى عن الشرك بالله ، وما كان هذا الأمر ليأتى من قبيل المصادفة ، وإنما جاء لهدف أسمى ألا وهو :

- الاهتمام بأمر الوالدين ، والحث على برهما لأنهما سبب وجود الإنسان ، ولأنه أدوم للشكر وأحفظ لبقاء النوع الإنسانى بالوثوق بالبر من الأولاد .

- شكر المنعم سبحانه فإنه لا شكر الله من لم يشكر الناس .

ولا يفهم من تعدد وتكرار التوصية بالوالدين - حيث كررت هذه الوصية فى القرآن الكريم فى أكثر من موضع (البقرة /٨٣ و ١٨٠ و ٢١٥) و (النساء /٣٦ و ١٣٥) و (الأنعام /١٥١) و (الإسراء /٢٣) و (العنكبوت /٨) و (لقمان /١٤) و (الأحقاف /١٥) - أن فى هذا انتقاص لبلاغة القرآن الكريم ، إذ قد عرفت من قبل أن التكرار يكون لمعان بلاغية يقصد منها إما تعدد المتعلق ، أو التنبيه إلى أهمية الأمر ، وغير ذلك من المعانى التى يهدف إليها التكرار ، وقد ذكر أستاذنا الدكتور شيخون أن (جوستاف لوبون) ذهب إلي أن « للتكرير تأثير فى عقول المستنيرين ، وتأثيره أكبر من عقول

الجماعات من باب أولى ، والسبب فى ذلك كون المكرر ينطبع في تجاويف الملكات اللاشعورية التى تختمر فيها أسباب أفعال الإنسان، فإذا انقضى شطر من الزمن نسى الواحد منا صاحب التكرار ، وانتهى بتصديق المكرر ، إذ إن الشيء إذا تكرر رسخ فى الأذهان رسوخا ينتهى بقبوله حقيقة ناصعة » . (١)

السر البلاغى فى التوصية بالأولاد بعد الآباء وبعد النهى عن الشرك بالله

ومقتضى النظم وإعجازه ، وتمام قسمته ، ولقوة عرى الأوامر والنواهى الإسلامية، أن يجيء النص الكريم بالأمر ولفقه ، فإن الله موجد الكون ، وإعماره بالنسل الإنسانى ولا يكون إلا من أبوين كما اقتضت حكمته فى خلق آدم وحواء ، وذرية تحفظ النوع الإنسانى ، فلما انتهى من الكلام علي النهى عن الشرك، تابع فأوصى بالوالدين، وكان تمام الأمر وملاكه أن يعقب بالأبناء ؛ لأن بهم قوام الأسرة التى هى لبنة المجتمع ، وليرفع الإسلام الضيم عما لحق الأولاد من ازدراء للإناث بحجة خوف العار أو الفقر ، ولما كان الفقر أولى هذه المسائل بدأ به فقال :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ : وقد جاء النهى الصريح، كما جاء النهى عن الشرك بالله ، لينبه إلى شناعة

---

(١) ينظر من أسرار البلاغة من روح الإجتماع / ١٣٩ – ت : أحمد فتحى زغلول . ط : الرحمانية .

الفعل ، وعظم خطره على الأمان الذي كفله الله تعالى للمجتمع بما فرض من حدود، وما يؤدى أيضاً إلى الشك وعدم الإيمان بأن الرزق آت، ولذا كان قسم الله سبحانه علي حقيقة مجيئه - ﴿فورب السَّماء والأرْض إنَّهُ لحقٌ مِثْلَ مَا أنَّكُمْ تنطقُون﴾ - (١)

وهل هناك إساءة أعظم من تلكم الإساءة الموجهة إلى أقرب المقربين ! ، وإذا كان هذا فما بالك بعلاقة هؤلاء الغلاظ بغير الأبناء، مما لاشك أنكى وأنكد، ولذا كان نهى المولى سبحانه عن قتل الأولاد لينزع سخيمة الشر من هذه القلوب .

ولمزيد من التحنن ، ولمزيد من ترقيق القلوب ، ولمخاطبة العاطفة الأبوية، ولاسترعاء جانب الشفقة كان الخطاب الموجه إليهم فى التعبير بقوله : ﴿أوْلادكُم﴾، ولم يقل : الأولاد ، ولما كانت الجريمة ذات خطر أيضا على المجتمع بصفة عامة جاء التعبير بالتنكير ، وليبين أن كل المجتمع شريك فى الجرم فلم يقل (ابنك) مثلا، وإنما قال : ﴿ أوْلادكُم﴾ ، لأن منفعة الولد ليست قصرا على أبيه ، وإنما تعود على المجتمع كله .

ولما كانت أظهر الأمور ، وأشنع أسباب قتل الوالد لولده هو الفقر كان ذكره فى الآية ، وإن كانت هناك أسباب أخر قد تؤدى إلى قتل الوالد لولده .

---

(١) الذاريات / ٢٣ .

وقد جاء النهى عن هذه الفعلة مرتين فى القرآن الكريم ، هذه الأولى ، أما الثانية فقد ذكرت فى سورة الإسراء بيد أن التركيب قد اختلف ، إذ قال سبحانه هنا فى سورة الأنعام : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ ، بينما نراه جل شأنه يقول فى سورة الإسراء : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ ، ويقول أبو حيان عند تعرضه لهذه الآية : ويمكن أن يكون ذلك من التفنن فى الكلام .

ويمكن أن يقال فى هذه الآية - آية سورة الأنعام - جاء من إملاق فظاهره حصول الإملاق للوالد لا توقعه وخشيته ، وإن كان واجدا للمال ، فبدأ أولا بقوله : نحن نرزقكم خطابا للآباء وتبشيرا لهم بزوال الإملاق ، وإحالة الرزق على الخلاق الرزاق ، ثم عطف عليهم الأولاد .

وأما فى الإسراء فظاهر التركيب أنهم موسرون ، وأن قتلهم إياهم إنما هو لتوقع حصول الإملاق والخشية منه ، فبدأ فيه بقوله ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ ﴾ ، إخبار بتكلفه تعالى برزقهم ، فلستم أنتم رازقيهم، وعطف عليهم الآباء .

وصارت الآيتان مفيدتين معنيين :

أحدهما : أن الآباء نهوا عن قتل الأولاد مع وجود إملاقهم .

والآخر : أنهم نهوا عن قتلهم وإن كانوا مدسرين لتوقع الإملاق وخشيته . (١)

---

(١) البحر المحيط ٤/٢٥١ .

وفى الآيتين تقديم بعض المعمولات على بعض ؛ لكون ذكرها أهم، يقول أستاذنا الدكتور محمود السيد شيخون : « قدم فى الأولى – الأنعام /١٥١ – وعده برزق المخاطبين على رزق الأولاد ، وعكس فى الثانية – الاسراء /٢٢ – ؛ لأن الأولى : خطاب للفقراء ، والثانية : خطاب للموسرين ، ورزق الأولاد هو مطلوبهم لمالهم من يسار بخلاف الأولى فمطلوبهم رزق أنفسهم لفقرهم » . (١)

أما ابن أبى الأصبع المصرى فإنه يرى أن الآية فيها إيضاح – وهو من الفنون البديعية التى ابتكرها ، ولم يعرفها أحد قبله كما ادعى – وهو : « أن يذكر المتكلم كلاما فى ظاهره لبس ، ثم يوضحه فى بقية كلامه » . (٢)

ومهمة الإيضاح : توضيح المعنى المراد – ورفع اللبس ، وتوضيح الشك . (٣)

والإيضاح عند ابن أبى الأصبع بخلاف التفسير، إذ إن «التفسير تفصيل الإجمال، والإيضاح رفع الإشكال ؛ لأن المفسر من الكلام لا يكون فيه إشكال البتة . (٤)

ويتناول الدكتور حفنى شرف مسألة الإيضاح والتفسير ، وأن الآيتين الكريمتين لا يمكن جعلهما من التفسير – أحد الفنون

---

(١) محاضرات فى البلاغة العربية /١٤١ ، وينظر الإيضاح / ٢٠٨ – شرح د/ خفاجى ، ط : دار الكتاب المصرى اللبنانى – .

(٢) تحرير التحبير / ٥٥٩ .

(٣) نفسه . (٤) نفسه / ٥٦٠ .

البديعية – ؛ لأن الإيضاح هو : إبراز المعنى فى صورتين مختلفتين، الإبهام ثم الإيضاح لتمكين المعنى فى النفس تمكينا زائدا تحصل به لذة العلم ؛ لأن الشىء إذا علم من وجه دون وجه تشوقت النفوس إلى العلم بالمجهول ، فتحصل لها بسبب العلم لذة لحرمانها من الباقى » . (١)

وأما عن الإيضاح فى الآية فإنه قال سبحانه فى سورة الأنعام ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ ﴾ وفى سورة الاسراء ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ ﴾ ، « وإيضاح هذا الإشكال أن يقال : أنه سبحانه لما قال فى الأولى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ ﴾ دل هذا اللفظ على أن الفقر كان حاصلا بقتلهم الأولاد بسبب وجوده ، فلا جرم أنه سبحانه وتعالى قال : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ ﴾ ، أى : ما يغنى فقركم .

ولما قال فى الثانية :﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ﴾ ، دل على أنهم أغنياء، وإنما هم يخشون الفقر ، فلا جرم أنه قال : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ ﴾ ، أى : لا تظنوا أنكم ترزقون الأولاد من رزقكم فتفتقرون، نحن نرزقهم » . (٢)

وجملة ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾، معترضة مستأنفة – وفيها التفات أيضا – إذ عدل عن طريق الغيبة الذى جرى عليه الكلام من

---

(١) تحرير التحبير / ٥٥٩ .

(٢) ينظر حاشية الشهاب ١٣٨/٤ وتحرير التحبير / ٥٦١ .

قوله :﴿ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ ﴾ ، إلى طريق التكلم بضمير ﴿ نَرْزُقُكُمْ ﴾ ، تذكيرا بالذى أمر بهذا الأمر كله .

– وفيها أيضا – تقديم المسند إليه على المسند الفعلى هنا لإفادة الاختصاص، أى : نحن نرزقكم وإياهم ، لا أنتم ترزقون أنفسكم ولا ترزقون أبناءكم . (١)

وفى النص الكريم أيضا من البديع : التغاير أو المغايره أو التلطف وهو : «تضاد المذهبين إما فى المعنى الواحد بحيث يمدح إنسانا شيئا ويذمه ، أو يذم ما مدحه غيره ، أو يفضل شيئا على شىء ثم يعود فيجعل المفضول فاضلا ، أو يفعل ذلك مع غيره فيجعل المفضول عند غيره فاضلا وبالعكس » . (٢)

ومن التغاير أن يتغاير كلام الشخص الواحد فى وقتين (٣)، فينتج عنه تغاير المعنى لمغايرة اللفظ ، وهذا ظاهر فى الآية التى بين أيدينا، إذ نرى أنه سبحانه قدم هنا للفقراء بدليل قوله ﴿ مِّنْ إِمْلَاقٍ ﴾، فاقتضت البلاغة تقديم وعدهم – أعنى الآباء الملقين – بما يغنيهم من الرزق ، واقتضت البلاغة تكميل المعنى بعدة الأبناء بعد عدة الآباء ؛ ليكمل سكون النفس .

---

(١) ينظر التحرير والتنوير ١٥٩/٨ .

(٢) تحرير التحبير / ٢٧٧ ، بديع القرآن /١٠٥، الصناعيتين /٤٨٢ .

(٣) شروح التلخيص ٤٦٨/٤ .

أما فى سورة الإسراء فالخطاب للأغنياء بدليل : ﴿ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ﴾ ، فإنه لا يخشى الفقر إلا الغنى، أما الفقير ففقره حاصل ، فاقتضت البلاغة تقديم وعد الأبناء بالرزق ليشير هذا التقديم إلى أنه سبحانه هو الذى يرزق الأبناء ليزول ما توهم الأغنياء من أنهم بإنفاقهم على الأبناء يصيرون إلى الفقر ، ثم كمل الطمأنينة بعدة الآباء بعد عدة الأبناء . (١)

وفى قوله ﴿ مِّنْ إِمْلَاقٍ ﴾ مجاز مرسل ، وهو جار مجرى الكناية ؛ لأنه إذا خرج المال من يد الشخص ركبه الفقر ، فاستعمل لفظ السبب فى موضع المسبب، قال الزمخشرى : « ومن المجاز أملق الدهر ماله : أذهبه وأخرجه به من يده، وأملق الرجل : أنفق ماله حتى افتقر ، ورجل مملق » . (٢)

وأما قوله سبحانه : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾، فقد نهى سبحانه عن مجرد الاقتراب وبالتالى عن الفعل من باب أولى ؛ لأن القرب كناية عن ملابسة الإثم أقل ملابسة ، لذا جاءت الآية بالنهى عن القرب فهى أبلغ فى التحذير من مجرد النهى . (٣)

---

(١) ينظر اعراب القرآن ٣/٢٧٠ : ٢٧١ .

(٢) أساس البلاغة / ٦٠٤ (ملق) .

(٣) ينظر التحرير والتنوير ٨/١٥٩ .

وفيها أيضا إيجاز بالحذف ، فإن قوله ﴿ وَمَا بَطَنَ ﴾ على تقدير ؛ وما بطن منها، فحذف المتعلق لدلالة ما قبله عليه ، ويمكن أن يكون فيها إيجاز قصر من حيث كونها تشمل جميع المنهيات بلفظ غاية فى الوجازة ، لأن النهى هنا استوعب ترك جميع المعاصى .

والفواحش يمكن أن تؤول على الزنا، وعليه فيكون عدل عن المفرد إلى الجمع إما للمبالغة ، أو باعتبار تعدد من يصدر عنه (١) ، والأولى إجراء النهى على عمومه ولا يخص بنوع معين .

وظاهر الإثم ما يراه الناس ، وباطنه بخلافه ، وقيل ما يراه الناس ما يفعله الأراذل فى الحوانيت ، بينما الباطن ما يفعله الكبراء فى السر باتخاذ الأخدان ، وعليه فتكون « ظهر وبطن حالتان تستوفيان أقسام ما جعلت له من الأشياء» (٢) ، ويكون فيها على ذلك حسن تقسيم .

ثم عطف بعد ذلك سبحانه الوصية التى تليها على ما سبق من الوصايا ، وهى وصية ذات شأن فقال سبحانه : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ ، جاء النص الكريم على الخصوص بعد

---

(١) ينظر روح المعانى ٥٤/٨/٤ ، وحاشية الشهاب ١٣٨/٤ .

(٢) ينظر المحرر الوجيز ١٧٩/٦، والتحرير والتنوير ٣٧/٨/٥، وروح المعانى ٥٤/٨/٤ وحاشية محيى الدين زاد ٢٢٢/٢، والجامع لأحكام القرآن للقرطبى ١٣٣/٧ – ط : الهيئة المصرية العامة للكتاب ط : ثالثة ١٩٨٧م – .

العموم ، فإن القتل مندرج تحت عموم الفواحش ، إذا الأجود أن لا يخص الفواحش بنوع ما ، وإنما جرد منها قتل النفس تعظيما لهذه الفاحشة واستهوالا لوقوعها ؛ ولأنه لا يتأتى الاستثناء بقوله ﴿ إِلاَّ بِالْحَقِّ ﴾ إلا من القتل لا من عموم الفواحش [1] - والتعريف فى النفس تعريف الجنس ، فيفيد الاستغراق - وعليه فقد عبر بالنفس ليتسع التحريم فيشمل المؤمنة ، والذمية ، والمعاهدة . [2]

وفى الآية أيضا إيجاز بالحذف ، فإن ﴿ إِلاَّ ﴾ أداة استثناء لمتعلق بمستثنى محذوف تقديره : ولا تقتلوا النفس التى حرم الله قتلها إلا نفسا أحل الله قتلها بالحق . [3]

هذا وقد جاء الإفراد بعد الذكر لفائدتين :

إحداهما : أن الأفراد بالذكر يدل على التعظيم والتفخيم ، كقوله : ﴿وَمَلاَئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ ﴾ . [4]

الثانية : أنه تعالى أراد أن يستثنى منه ، ولا يتأتى هذا الاستثناء فى جملة الفواحش " [5] ﴿ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ، بعد أن ذكر ما ذكر من الوصايا أعقبها باسم الإشارة الذى يأتى للبعيد، وذلك يحتمل الإعلاء من شأن هذه الوصايا وأنها بمكان تجعل من تمسك بها فى عليين ، أو أنها لا يفعلها ولا يمتنع عن

---

(١) ينظر التحرير والتنوير ١٦٠/٨ ، والجامع لأحكام القرآن ١٣٣/٧ .

(٢) ينظر البحر المحيط ٢٥٢/٤ . (٣) الإعراب المفصل ٣٥٨/٣ .

(٤) البقرة / بعض الآية ٩٨ . (٥) مفاتيح الغيب ١٩١/١٣/٧ .

محظوراتها إلا عاقل ؛ لأنها من بديهيات الأمور التى تجعل الانسان السوى تعف نفسه، ويسمو بعقله عن مثل هذه الدنايا ، ومن ثم كانت الإشارة الجامعة التى تشير إلى كل ما سبق ، ومن الملاحظ أنه لم يقل (هؤلاء) ، وإنما أشار بالمفرد (ذا) باعتبار المذكور . (١)

وأما اختيار ﴿وَصَّاكُم﴾ ، على غيرها من التعبيرات من مثل (فرض)، و (أمر) و (أوجب) ، و (ألزم) وغير ذلك لما فى « لفظ وصاكم من اللطف والرأفة ، وجعلهم أوصياء له تعالى ما لا يخفى من الإحسان (٢). واللفظ هنا أيضا « يقرب إلى القلب القبول ... وكل ذلك ليكون المكلف أقرب إلى القبول (٣) . ومع اللطف فيه فهو « الأمر المؤكد المقدر » . (٤)

﴿لعلَّكُمْ تعْقلُون﴾ والمتأمل فى الآيات الكريمات يجد أن كل مجموعة من الوصايا ختمت بكلمة (لعل) وقد اختيرت لما تضمنت من معنى التعليل وإظهار العلة للخصم فى أن « فوائد هذه التكاليف ومنافعها فى الدين والدنيا والآخرة » (٥) وأتبعت بـ ﴿تعْقلُون﴾ ، لأن ملابسة المحرمات السابقة ينبىء عن خساسة العقل » . (٦)

---

(١) ينظر التحرير والتنوير ١٦٢/٨ . (٢) البحر المحيط ٢٥٢/٤ .
(٣) مفاتيح الغيب ١٩١/١٣/٧ . (٤) الجامع لأحكام القرآن ١٣٤/٧ .
(٥) ينظر البحر المحيط والدر اللقيط ٢٥٢/٤ ومفاتيح الغيب ١٩١/١٣/٧ .
(٦) التحرير والتنوير ١٦٢/٨ .

ومن قوله تعالى : ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ تذييل جعل نهاية للآية [1]، وهى جملة اسمية استئنافية جيء بها لتجديد العهد ، وتأكيد لإيجاب المحافظة على ما كلفوه » . [2]

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾، النهى هنا جاء عن القرب الذى يعم جميع وجوده التصرف [3]، وابتدأها المولى سبحانه وتعالى بحفظ حق الضعيف الذى لا يستطيع الدفع عن خصمه فى ماله [4]، ولذا كان العدول عن (ولا تأكلوا) إلى ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا ﴾ لشدة التحذير والدفع .

لماذا خص اليتيم بالذكر دون غيره رغم تحريم أكل المال بغير حق بصفة عامة؟

خص اليتيم بالذكر : لأن الطمع فيه أكثر لضعفه وقلة مراعاته [5]، وخص اليتيم بالذكر أيضا للتحذير من الاقتراب من مال اليتيم؛ لأن خصمه الله .

---

(١) نفسه ١٦٢/٨ .

(٢) روح المعانى ٥٥/٨/٤ .

(٣) البحر المحيط ٢٥٢/٤ .

(٤) التحرير والتنوير ١٦٣/٨ .

(٥) البحر المحيط ٢٥٢/٤ .

وفى الآية إيجاز بالحذف حيث حذف الموصوف ، والتقدير : ولا تقربوا إلا بالقربة التى هى أحسن ، إذ هى على غرار : ﴿ ادفع بالتى هى أحسن السيئة ﴾ أى بالخصلة الحسنة ادفع السيئة ، والمثل « بعد اللتيا والتى » أى بعد الداهية الحقيرة ، والداهية الجليلة كما قال سلمى بن ربيعه الضبى . (١)

ولقد رأبت ثأى العشيرة بينها

وكفيت جانبها اللتيا والتى

والنهى هنا ليس قصرا على النهى وإنما فيه الأمر بالإصلاح وذلك بالاتجار فيه والعمل بما يصلح المال وتثمير فروعه وحفظ أصوله . (٢)

لماذا عبر بالتى هى أحسن

ولم يقل بالتى هى حسنة ؟

جاء التعبير بأفعل التفضيل مراعاة لمال وحال اليتيم ، وأنه لا يكفى فيه الحالة الحسنة بل الخصلة الحسنى .

وأما بلوغ الأشد فقد جاء هنا على المجاز ؛ لأن الأشد يختلف من قوة عقلية وبدنية ونفسية ، والمعنى بها هنا القوة العقلية المخرجة عن

---

(١) التحرير والتنوير ١٦٣/٨ .

(٢) ينظر معانى القرآن للزجاج ٣٠٥/٢ .

ت : عبد الجليل شلبى ط: عالم الكتب بيروت – .

والجامع مع لأحكام القرآن ١٣٤/٧ .

وهن الصبا حتى يستطيع أن يدير ماله ، وقصدنا ذلك ؛ لأن (أشد) تصرف إلى بلوغ سن الأربعين ويزيد - ﴿ حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة ﴾ وقول عبد بنى الحسحاس :

أخو خمسين مجتمع أشدى

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ﴾ وأوفوا وفى يقال : درهم واف، وكيل واف ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ ﴾ واستوفاه وتوفاه : استكمله . (١)

والآية هنا فيها إيغال وهو أن « يستوفى معنى الكلام قبل البلوغ إلى مقطعه ، ثم يأتى بالمقطع فيزيد معنى آخر يزيد به وضوحاً وشرحا وتوكيدا حسنا » . (٢)

وهنا أُخَيٍّ فى هذه الآية « أعلم أن كل شىء بلغ تمام الكمال ، فقد وفى وتم يقال : درهم واف ، وكيل واف ، وأوفتيه حقه ، ووفيته : إذا أتممته ، وأوفى الكيل إذا أتمه ولم ينقص منه شيئاً ، وقوله ﴿ وَالْمِيزَانَ ﴾ أى الوزن بالميزان ، وقوله ﴿ بِالْقِسْطِ﴾ أى بالعدل لابخس ولا نقصان .

فان قيل : إيفاء الكيل والميزان هو عين القسط ، فما الفائدة فى هذا التكرير ؟

قلنا أمر الله المعطى بإيتاء ذى الحق حقه من غير نقصان ، وأمر صاحب الحق بأخذ حقه من غير طلب زيادة » . (٣)

---

(١) أساس البلاغة (وفى) . (٢) الصناعتين /٤٢٢ .

(٣) ينظر حاشية محيى الدين شخ زادة ٢٢٢/٢ ، ومفاتيح الغيب ١٩٢/١٣/٧ .

وهذه المحرمات جاء ذكرها بصيغة الأمر الصريح ، بينما جاء بعضها بصيغة النهى، وبعضها بصيغة الأمر المؤول ، والأمر بالشىء يقتضى النهى عن ضده. (١) ﴿ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ احتراس بين جملة ﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ ﴾ و ﴿ إِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا ﴾ والمقصود من هذا الاحتراس أن لايترك الناس التعامل بينهم خشية الغلط أو الغفلة ، فيفضى ذلك إلى تعطيل منافع جمة .

وقد التفت فى الاحتراس من الغيبة فى ﴿ ما حرم ربكم عليكم ﴾ ، لما فى هذا الاحتراس من الامتنان ، فتولى الله خطاب الناس فيه بطريق التكلم مباشرة زيادة فى المنة وتصديقا للمبلغ ..

ويجوز أن تكون جملة ﴿ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ تذييلا للجمل التى قبلها، تسجيلا عليهم بأن جميع مادعوا إليه هو فى طاقتهم ومكنتهم . (٢)

والجملة لا محل لها من الإعراب جاءت للتنبيه على أن أمر الكيل والميزان ومراعاة العدل فيهما يتطلب دقة ومغالبة للهوى .

وإنما جاءت هذه الجملة عقيب الأمر بايفاء الكيل والميزان بخاصة؛ لأن مراعاة الحد من القسط الذى لا زيادة فيه ولا نقصان فما يجرى فيه الحرج فأمر ببلوغ الوسع وأن ما وراءه معفو عنه». (٣)

---

(١) ينظر التحرير والتنوير ١٥٧/٨ . (٢) التحرير والتنوير ١٦٦/٨ .

(١) ينظر إعراب القرآن ٢٧٧/٣ والكشاف ٧٦/٢ .

فائدة الجملة : جاءت هذه الجملة على سبيل الاحتراس ، ولا يمكن الاستغناء عنها ؛ لأنها جاءت لإظهار ثمرة الإيمان ، والتسليم ، والطاعة ، و الانقياد لله سبحانه .

﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ جاءت الجملة على الشرط لما فى إمكان المتكلم أن يسكت بدلا من يقع المخالفة وقوله : ﴿ إِذَا قُلْتُمْ ﴾ إيجاز قصر ، فإن اللفظة جمعت كل المعاملات بين الناس بواسطة الكلام ، وهى الشهادة ، والقضاء ، والتعديل ، والتجريح ، والمشاورة ، والصلح بين الناس .... الخ .

وجاءت الجملة معطوفة على ما قبلها بصيغة الأمر المباشر ، « دون النهى عن الظلم أو الباطل ؛ لأنه قيده بأداة الشرط المقتضى لصدور القول ... ، ولأنها لو أتت بالنهى لما أصابت محزها إذ إن النهى عن قول الباطل أو الزور يصدق بالكلام الموجه الذى ظاهره ليس بحق ، وذلك مذموم إلا عند الخوف أو الملانية ، أو فيما لا يرجع إلى إظهار الحق ؟ وتلك هى المعاريض التى ورد فيها حديث : إن فى المعاريض لمندوحة عن الكذب » . (١)

و (الواو) واو الحال ، و (لو) يطلق عليها الوصلية ، فإن أكثر النحاة ذهب إلى أن لو ، وإن الشرطيتين فى مثل ، ما فى هذه الآية مجردتان عن معنى الشرط لا يقصد بهما إلا المبالغة ، وأنهما تجيئان لمجرد الوصل والربط فى مقام التأكيد ، ولذا اختلف فى

---

(١) ينظر الطرق الحكميه لابن القيم وسنن البيهقى ، والكامل لابن عدى .

الجملة الواقعة بعدهما ، والمحققون [1] على أن جملة الشرط حال و (الواو) واو الحال .

﴿ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ﴾ الوصية الرابعة فى المجموعة الثانية التى تعنى بالتعاملات بين الناس ، وهى كغيرها من الوصايا الأربع التى جاءت بالأمر المباشر بل زادت التخصيص الذى جاء من تقديم الجار والمجرور على عامله للاهتمام بأمر العهد .

واللفظة تتسع لتشمل كل العهود - ما كانت بين الله والمخلوق ، وما بين الإنسان وأخيه الانسان ، حسبما اقتضته الإضافة إذ هذه الآية يمكن فيها إضافة المصدر (عهد) إلى الفاعل - ، أى ماعهد الله به إليكم من الشرائع .

ويصح أن تكون إضافة المصدر إلى مفعوله ، أى ماعاهدتم الله أن تفعلوه .. ويصح أن تكون الإضافة لأدنى ملابسة ، أى العهد الذى أمر الله بحفظه ... وهو العهود التى تنعقد بين الناس بعضهم مع بعض - .

ولأجل مراعاة هذه المعانى الناشئة عن صلاحية الإضافة لإفادتها عدل إلى طريق إسناد اسم العهد إلى اسم الجلالة بطريق الإضافة دون طريق الفعل .

---

(١) ينظر ماقاله ابن جنى والزمخشرى .

أو أضيف ذلك العهد إلى الله جل شأنه وعظم من حيث أمر بحفظه والوفاء به . (١)

﴿ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ أعاد هنا كما ترى الأمر بالالتزام بالوصايا بيد إنه لما كانت الوصايا الخمسة المذكورة قبل هذه الوصايا الأربعة من الأمور الظاهر الجلية وجب تعقلها وتفهمها فختمت بقوله ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ ، وهذه الأربعة خفية غامضة لابد فيها من الاجتهاد والذكر الكثير حتى يقف الإنسان على موضع الاعتدال فختمت بقوله ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ . (٢)

فإن قال قائل : إن الاحسان إلى الوالدين ليس من القبائح التى كانوا يفعلونها غير مستنكفين ولا عاقلين قبحها، وإنما هى من الأمور التى كانوا يفعلونها ويفتخرون بالاتصاف بها بدليل أحداث التاريخ .

فلم لم تجعل فى مجموعة الوصايا الثانية التى نسبهم الله تعالى إلى تذكرها إن طرأ لهم نسيان ؟

قلنا : مقتضى النظم والترتيب كما يأتى فى القرآن ببيان الأولى فالأولى والأهم فالمهم ، وإنك لو نظرت لوجدت أن أعظم النعم على الإنسان نعمة الله تعالى ، ويتلوها نعمة الوالدين ؛ لأنهما المؤثران

(١) ينظر محاضرات فى البلاغة العربية للدكتور شيخون /١٣٨ .
والبحر المحيط ٢٥٣/٤ والتحرير والتنوير ١٦٨/٨ .
والجامع لأحكام القرآن ١٣٧/٧ .
(٢) ينظر البحر المحيط ٢٥٣/٤ .

فى الظاهر ، ومنهما نعمة التربية والحفظ عن الهلاك فى وقت الصغر ، فلما نهى عن الكفر بالله تعالى نهى بعده عن الكفران فى نعمة الأبوين ، تنبيها على أن القوم لما لم يرتكبوا الكفران فبطريق أولى ألا يرتكبوا الكفر . (١)

وفى الآية كما ترى تكرار لما ذكر من قبل الآية السابقة ، والتكرار هنا جاء لعلة أنه تذييل ختم به صنف من أصناف الأحكام، وتأكيد، « ووسيلة لتثبيت المعنى فى نفوس قارئيه وإقراره فى أفئدتهم ، حتى يصبح عقيدة من عقائدهم ». (٢)

ويمكن أن يكون فى الآية التفات على خلاف رأى الجمهور .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ . الواو عاطفة من عطف الجمل عطفت على قوله ﴿ أن لا تشركو به شيئا ﴾ بتماثل المعطوفات فى أغراض الخطاب وترتيبه ، وفى تخلل التذييلات التى عقبت تلك الأغراض بقوله ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ .

---

(١) ينظر حاشيه الشهاب ١٣٨/٤

(٢) من أسرار البلاغة فى القرآن للدكتور شيخون /٧٩ ط : الكليات الأزهرية أولى ١٤٠٤هـ /١٩٨٤ .

ويمكن أن تكون معطوفه على ﴿ ماحرم ربكم ﴾ . وفى النص حينئذ كما ترى التفات حيث عدل عن طريق الغيبة ﴿ ماحرم ربكم عليكم ﴾ إلى التكلم ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ لغرض الإيماء إلى عصمة هذا الطراط من الزلل ؛ لأن كونه صراط الله يكفى فى إفادة أنه موصل إلى النجاح .

وأما (أن) فيجوز فيها الفتح والكسر ، ويرى أبو على الفارسى رأى سيبويه بأن تحمل (أن) أى تعلق على قوله فاتبعوه ، والتقدير : لأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه على قياس قول سيبويه فى .. قوله تعالى : ﴿ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا ﴾ . (١)

وتكون (أن) حينذاك مدخولة للام التعليل ، والتعليل هنا يعنى حذف اللام والتقدير ؛ لأن هذا طراطى مستقيما . (٢)

ويكون تقدير النظم حينذاك : « واتبعوا صراطى» ؛ لأنه صراط مستقيم (٣)، فوقع تحويل النظم بتقدير التعليل على الفعل الذى حقه أن يكون معطوفا فصار التعليل معطوفا لتقديمه ليفيد تقديمه تفرع المعلل وتسببه ، فيكون التعليل بمنزلة الشرط بسبب هذا التقديم كأنه قيل : لما كان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه .

---

(١) الجن / ١٨ .

(٢) ينظر البحر المحيط ٤/٢٥٤ .

(٣) ويرى الزفخشرى هذا الرأى وينظر الكشاف ٢/٧٦ العلمية .

وعلى قراءة من كسر (إنّ) - حمزة والكسائى - فلا تحويل فى نظم الكلام ويكون قوله (فاتبعوه) تفريعا على إثبات الخبر بأن صراطه مستقيما . (١)

وأما عن إعادة (إن) هنا فلا تكرار فيها لاختلاف المتعلق حيث إن اختلاف أسلوب الكلام عما قبله .

﴿ هذا ﴾ إشارة إلى حاضر ، وإن كان ليس أمامهم المشار إليه ، وإنما هو حاضر فى أذهان المخاطبين من أثر تكرر نزول القرآن ، وسماع أقوال الرسول - ﷺ - .

ويجوز أن تكون الإشارة الى ما تقدم من التشريعات والمواعظ التى تقدمت فى هذه السورة ؛ لأنها صارت كالشىء الحاضر .

ومن النظم فى الآية وقوع الاستعارة فى ﴿صِرَاطِي مُسْتَقِيماً ﴾ ، وقد عرفت من قبل أن النظم توخى معانى النحو وأن الاستعارة داخلة فيه . (٢)

والذى جعلنا نرجح حمل الآية على الاستعارة قوله تعالى في آخر السورة ذاتها - الأنعام ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا ﴾ ؛ لأن المقصود منها تحصيل الصلاح فى الدنيا والآخر فشبهت بالطريقة الموصل السائر فيه إلى غرضه ومقصده . (٣)

---

(١) ينظر التحرير والتنوير ١٧١/٨ . (٢) ينظر دلائل الإعجاز/٣٨٥ : ٤٢٠.
(٣) ينظر اعراب القرآن لمحيى الدين الدروش ٢٨٦/٣ والتحرير والتنوير ١٧٢/٨ .

وإن قيل إن الصراط صراط الله - وهذا صراط ربك » و ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ فلم أضيف إلى الرسول - ﷺ ؟ .

أما عن إضافة الصراط إلى الرب سبحانه من حيث الوضع ، وإليه عليه الصلاة والسلام من حيث السلوك والدعوة ، أى هذا الصراط الذى اسلكه وأدعوا إليه . (١)

وإنما أضيف إليه - ﷺ اولاً ، لأن ذلك أدعى للاتباع إذ به يتضح كونه صراط الله عز وجل . (٢)

﴿ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ طابق طباق سلب بين (اتبعوا) و ﴿ لا تَتَّبِعُوا ﴾ مع إيجاز بالحذف حيث حذف الصفة إذ التقدير : السبل المتفرقة غير المستقيمة .

مع التفات بين ﴿ سَبِيلِهِ ﴾ فإن الضمير المضاف إليه فى ﴿ سَبِيلِهِ ﴾ يعود إلى الله تعالى بقرينة المقام، فإذا كان ضمير المتكلم فى قوله ﴿ صِرَاطِي ﴾ عائدا لله .

﴿ فتفرق بكم ﴾ الأصل تتفرق فحذف إحدى التاءين ، والباء للتعدية أى فتفرقكم حسب تفرقها أيادى سبأ فهو كما ترى أبلغ من تفرقكم . (٣)

---

(١) ينظر روح المعانى ٥٦/٨/٤ .

(٢) ينظر روح المعانى ٥٧/٨/٤ وحاشية محيى الدين زاده ٢٢٢/٢ .

(٣) ينظر حاشيه شيخ زاده ٢٢٢/٢ ورح المعانى ٥٧/٨/٤ .

﴿ ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ تذييل تكرير لمثليه السابقين ، فالإشارة بذلكم : إشارة للبعيد لعلو منزلته وتعنى الصراط ، وفيه تعريف للمسند إليه بالإشارة لبيان أهمية المشار إليه ، وأن الأمر يعنى الاهتمام بهذه الوصايا .

وأما ﴿وصاكم﴾ قيل لما كان فى الوصية معنى الاهتمام والمحافظة زيادة على معنى الطلب استعيرت للأمر المؤكد ، والموصى به نفس ما ذكر لاحفظه لما عرفت أن معنى الحفظ ينتظم معنى الوصية . (١)

﴿ لعل ﴾ للترجى ، ولأنه لم يتحقق فى المخاطبين تلبسهم بالتقوى، فاختيرت هذه الأداة دون غيرها ممن يقترب من معناها رجاء أن تتحقق فيهم ؛ لأن سبيل الله يحتوى على ترك المحرمات ، والالتزام بفعل الصالحات ، فمن اتبع ذلك حق له أن يوصف بالتقوى .

ولأهمية التقوى ، ولأنها خير لباس يتزين به الفرد ، أفردت وحدها بوصية فى القرآن الكريم ، قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ (٢) فقد جعل الأمر بالتقوى وصية ، لأن الوصية قول فيه أمر بشىء نافع جامع لخير كثير ، فلذلك كان الشأن فى الوصية إيجاز القول ، لأنه يقصد منها وعى السامع واستحضاره كلمة الوصية فى سائر أحواله . (٣)

(١) ينظر حاشية ألشهاب ١٣٩/٤ ، والتحرير والتنوير ١٧٤/٨ .

(٢) النساء /١٣١ .

(٣) ينظر التحرير والتنوير ٢١٩/٥ و ١٧٤/٨:١٧٥ .

وكررت الوصية ﴿ذلكم وصاكم﴾ للتوكيد ، وذلك لما أن كان الصراط المستقيم هو الجامع للتكاليف ، وأمر الله باتباعه .

ومن مقتضى النظم فى الآيات الكريمة بناء على اختلاف خاتمه كل آية - ﴿لعلكم تعقلون﴾ ، ﴿لعلكم تذكرون﴾، ﴿ لعلكم تتقون ﴾ - فإنه لما كانت المحرمات الأول لايقع فيها عاقل ناسب أن تختم الآية بقوله ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ ، وأما المحرمات الأخر فهى عبارة عن شهوات قد يقع فيها من العقلاء من لم يتذكر فناسب الآية أن تختم بـ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ ، فإذا ما ركب الإنسان الجادة واتسم بفعل الفضائل الكاملة فإن تلك درجة التقوى، فناسبها أن تختم بـ ﴿ لعلكم تتقون ﴾ . (١)

وبعد هذه الآيات الجامعة لخصال الخير ، والتى تحقق المجتمع الفاضل الذى تكتنفه المحبة والسلام ، ويرفرف فى جنباته الوئام عقب سبحانه بـ ﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ تقريرا للوصية ، وتحقيقا لها ، وتمهيدا لما تعقبه من ذكر إنزال القرآن المجيد كما ينبىء عنه تغيير الأسلوب بالالتفات إلى التكلم .

ومن الملاحظ أن الآية هنا عقبت بذكر موسى - عليه السلام - لبيان امتداد هذه الوصايا وأن جذورها من لدن السابقين من رسل الله - عليهم السلام - وقد وضحت الوصية فى موطن آخر بينت

---

(١) ينظر روح المعانى ٥٧/٨/٤ والبحر المحيط ٢٥٤/٤ .

امتداد الشرع الحكيم لما قال سبحانه ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ (١) ولذا أوثر الوحى بـ (الَّذِى) لأنه شرع متداول فى رسل الله، وجاءت الآية على الالتفات بوصية تأمر بإقامة الدين والإقامة جعل الشىء قائما وهى استعارة للحرص على العمل بالوصية . (٢)

---

(١) الشورى /١٣ .

(٢) ينظر الكشاف وروح المعانى والتحرير والتنوير .

المبحث الثالث
اختلاف الوصية باختلاف الموصى

الوصية تختلف باختلاف الموصى

رأيت في الآيات السابقات جملة من الوصايا القرآنية ، وكلها صادره عن الحق سبحانه ولا تحمل بين جنبتها إلا صلاح الفرد، وسعادة المجتمع ، وتحقيق التوازن النفسى وبيان أهمية الأمر بما جاء من قبل بلفظ المضارع والأمر وكذا ما جاء بلفظ الماضى فى قوله تعالى : ﴿ وأوصانى بالصلاة والزكاة ﴾ فتكون القسمة قد اكتملت ، ومعلوم أن الإخبار بالماضى عن المستقبل لتحقيق الوقوع، فإن الوصاية الأمر المؤكد بعمل مستقبل ، والآية هنا تعنى أن الله أمر نبيه عيسى – عليه السلام – بهذه الأمور أمرا مؤكدا مستمرا مستعملا فيه صيغة المضى ، لأنه أمر ملزم مقدر لابد منه .

أما إذا كانت الوصية من البشر فإنها تختلف باختلاف نوازع نفسه ما بين المهتدية والضالة .

والوصية من البشر إما أن تكون من الرسل وهم لاشك فى أنهم لاينطقون عن هوى ، ولم تغالبهم الغرائز . ومن ثم فوصيتهم لاتعدوا إلا أن تكون التطبيق العملى لما أرشد إليه رب العالمين .

وأما من البشر غير الرسل فمنهم المصمئن النفس وهؤلاء وصيتهم لا تكون إلا فى الخير من الوصية بالحق ، والوصية بالصبر، والتواصى بالرحمة بما جاء فى سورتى البلد والعصر .

ففى سورة البلد / ١٧ ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ فإن من يوصى بشىء يكون قد عرفه وعرف قيمته وفضله وأثره ، ولذا كان النص على الكناية عن أنهم متصفون بهذه الصفة ، بينما غيرهم قد افتقدها ، ومادامت قد ثبتت فى المؤمنين هذه الصفات فإنها تعرض بالمشركين بأنهم يفتقدون لمثل ذلك .

وقريب الشبه بما سبق الوصية فى سوره العصر /٣ ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ فإن الجملة معطوفة على سابقتها (وعملوا الصالحات) من عطف الخاص على العام للاهتمام ، كذلك عطف التواصى بالصبر على التواصى بالحق عطف الخاص على العام أيضا .

وفى الآية الكريمة إيجاز قصر فإن العقائد الإسلامية والأخلاق الدينية مندرجة فى الحق ، والأعمال الصالحة بإقامتها وتحمل مشقتها ، وتجنب الموبقات لا يكون ولا يتحقق إلا إذا تجمل الإنسان بالصبر ، فقد حفت الجنه بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات .

ومن البشر فريق أعمته الغواية ، ولعبت به الأهواء ولم يعد لهم همة إلا تكذيب الرسل ، والصد عن سبيل الله خلفهم كسلفهم ، يقول لاحقهم ما قال به سابقهم ، تواطأوا جميعا على الكيد للدين ، والنيل من المرسلين ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ﴾ (١) أمر عجيب فقد قالوا ما قاله الأولون .

---

(١) الذاريات /٥٣ .

وهؤلاء حذرهم الله تعالى من مغبة هذا الأمر فإنه لا ينفعهم ما معهم ، فإذا جاءهم الوعد الحق ، والخبر الصدق ، وعاينوه بأعينهم، وسجنتهم أعمالهم القبيحة وحيل بينهم وبين مايشتهون حتى إذ طلبوا تحذير غيرهم ، أو الرجوع إلى الدنيا رجاء المثوبة كان الوعد الحق ﴿ فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ (١) كناية عن شدة السرعة بين الصيحة وهلاكهم ، ونكرت توصية للتقليل .

---

(١) يس /٥٠ .

خاتمـــة

هذا غيض من فيض، ولعاعة من عرض، مما حواه القرآن الكريم من أسرار بلاغية، ما أتينا منها إلا على أقل القليل مما فتح الله به علينا من النظر فى آيات الوصية نبرز للقارىء الطلعة، أن إعجاز القرآن الكريم فى بلاغة نظمه، واتساق كلمة، وأن ولاشك أن الجهد الطيب الذى قام به العلامة عبد القاهر فى البحث فى ضربى الكلام المعنى، ومعنى المعنى، والذى أفضى به إلى النظم، وإن كان قد انتفع بكلام غيره، إلا أن أثره لا يزال نجده حين نراجع القرآن فيستوقفنا جمال السبك ، ومتانة الحبك ، كلام معجز أعجز الأولين وكذلك الآخرين ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا ولَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ ﴾ -البقرة/٢٤.

وبعـــد :

فالله أشهد أننا به آمنا وإليه دعونا وله أحببنا ، وبه خاصمنا ، ومنه تعلمنا وعليه محيانا ومماتنا - ان شاء الله رب العالمين - ، كما نسأله - سبحانه - أن يجعلنا ممن قال فيهم : ﴿ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴾ - الحج / ٢٤ - .

والحمد الله الذى بنعمته تتم الصالحات

دكتور / فرج محمد فرج أحمد
مدرس البلاغة والنقد
بكلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنين بقنا

المصـــادر والمـرجـع

١- الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى - ط : دار ابن كثير. دمشق . سوريا .

٢- أساس البلاغة للزمخشرى - ط : دار صادر . بيروت . لبنان .

٣- الإشارة الآصفية للحلوانى الدمياطى - ط : محمد أفندى مصطفى - ١٣٠٦ هـ - .

٤- الأضداد لابن الأنبارى - ت : محمد أبو الفضل إبراهيم - ط : المكتبة العصرية . بيروت - ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م .

٥- إعجاز القرآن للباقلانى - ت السيد أحمد صقر - ط : دار المعارف- .

٦- إعجاز القرآن للرافعى - ط : دار الكتاب العربى . بيروت . لبنان-.

٧- إعجاز القرآن ونظمه عند السكاكى للدكتور فوزى السيد عبد ربه . - ط : الحسين الإسلامية ، أولى ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م - .

٨- إعراب القرآن وبيانه لمحيى الدين الدرويش - ط : دار اليمامة ، ودار ابن كثير . دمشق ، رابعة - ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م .
٩- الإعراب المفصل لكتاب الله المرتل - بهجت عبد الواحد صالح . ط: دار الفكر . بيروت ، أولى - ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م - .
١٠- الانتصار والرد على ابن الراوندى - ط : ١٩٢٥ م .
١١- الإيضاح بشرح د/ محمد عبدالمنعم خفاجى - ط : دار الكتاب المصرى اللبنانى - .
١٢- البحر المحيط لأبى حيان . نشر دار الكتاب الإسلامى بالقاهرة - طبعة ثانية ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م - .
١٣- بديع القرآن لابن أبى الاصبع المصرى - ت : د/ حفنى شرف - ط : نهضة مصر بالفجالة - .
١٤- البرهان فى علوم القرآن للزركشى - ت : محمد أبو الفضل إبراهيم - ط : دار الجيل . بيروت - ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م - .
١٥- بيان إعجاز القرآن للخطابى - ت : محمد زغلول سلام - ود / محمد خلف الله - ط : دار المعارف - .
١٦- تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة - ت : السيد أحمد صقر - ط : دار التراث بمصر .

١٧- تحرير التحبير لابن أبى الأصبع - ت : د/حفنى محمد شرف-ط : المجلس الأعلى للشئون الإسلامية-.
١٨- التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور - ط : الدار التونسية . تونس - .
١٩- التعريفات لعلى بن محمد الجرجانى - ط : دار الكتاب العربى . بيروت . لبنان - .
٢٠- التفسير الكبير للفخر الرازى - ط : دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان ، أولى ١٤١١هـ / ١٩٩٠م .
٢١- جامع البيان للطبرى - ط : دار المعرفة . بيروت . لبنان .
٢٢- الجامع لأحكام القرآن للقرطبى - ط : الهيئة العامه للكتاب . ثالثة ١٩٨٧م .
٢٣- حاشية الشهاب على البيضاوى ، المعروفة بـ (عناية القاضى وكفاية الراضى) - ط : دار صادر. بيروت-.
٢٤- حاشية محيى الدين شيخ زاده على البيضاوى - نشر المكتبة الإسلامية .محمد أزدمير . تركيا . ديار بكر - .
٢٥- الحيوان للجاحظ - ت : محمد عبد السلام هارون - ط : دار الكتب المصرية ١٣٥١ هـ - ١٩٣٣ م .
٢٦- الدر اللقيط على هامش البحر المحيط .

٢٧- دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانى - ت : محمود محمدشاكر . ط المدنى .
٢٨- رسائل الجاحظ - ت : عبده مهنأ .
٢٩- الرسالة الشافية لعبد القاهر الجرحانى (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) .
٣٠- روح الاجتماع - ترجمة أحمد فتحى زغلول - ط : الرحمانية - .
٣١- روح المعانى للألوس .ط دار الفكر .
٣٢ - سنن البيهقى - ط : بيروت - .
٣٣- شروح التخليص - ط : دار السرور. بيروت. لبنان-.
٣٤- الصاحبى لابن فارس - ط : دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان ، أولى ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م .
٣٥- صحيح البخارى - بيروت . لبنان - .
٣٤- الصناعتين لأبى هلال العسكرى - ط : دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان - وط : الحلبى - .
٣٧- الطراز للعلوى - ط : المقتطف - وط : دار الكتب العلمية - .
٣٨- الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية لابن القيم - ت: د/ محمد جميل عازى - ط : المدنى .

٣٩- عبد القاهر الجرجانى للدكتور أحمد أحمد يدوى - ط : دار مصر للطباعة - .
٤٠- فتح البارى لابن حجر العسقلانى . ط : دار إحياء الكتب العربية . بيروت . لبنان - .
٤١- القاموس المحيط للفيروز آبادى . ط : الحلبى ، نشر دارالجبل بيروت . لبنان .
٤٢- الكامل لابن عدى - ط : بيروت ، لبنان - .
٤٣- الكشاف للزمخشرى - ط : تهران .
٤٤- الكشاف للزمخشرى - ت : محمد مرسى عامر مراجعة دكتور شعبان محمد اسماعيل - ط : دار المصحف ١٣٩١هـ - ١٩٧٧م.
٤٥- الكشاف للزمخشرى - ط : مصطفى محمد .
٤٦- الكشاف للزمخشرى - ط : دار الكتب العلمية . بيروت لبنان .
٤٧- لسان العرب لابن منظور- ط : دار المعارف بمصر -.
٤٨- محاضرات فى البلاغة العربية - د/ محمود السيد شيخون - ط : بدون تاريخ - .
٤٩- المحرر الوجيز لابن عطية ط :المجلس العلمى بفاس - بالمغرب .

٥٠- المصباح لابن مالك - ت د/ حسنى عبد الجليل - ط : الآداب بمصر .
٥١- معانى القرآن للزجاج - ت : عبد الجليل عبده شلبى - ط : عالم الكتب . بيروت . لبنان .
٥٢- معانى القرآن للفراء - ط : دار الكتب المصرية ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٥م بالقاهرة .
٥٣- معجم الآدباء لياقوت الحموى .ط: القاهرة ١٣٢٤ هـ / ١٩٠٦ ، وط : دار المستشرق . بيروت .
٥٤- المغنى للقاضى عبد الجبار - ط : وزارة الثقافة بمصر، ١٣٨٠هـ.
٥٥- مفتاح العلوم للسكاكى - ت : نعيم زرزور - ط : دار الكتب العلمية ، ط : الحلبى بمصر - .
٥٦- مفردات القرآن للراغب الاصفهانى - ط : دارالكتب العملية . بيروت . لبنان .
٥٧- مفهوم الإعجاز القرآن حتى القرن السادس الهجرى د/أحمد جمال العمرى - ط : دار المعارف بمصر .
٥٨- مقالات الإسلاميين للأشعرى- ط : النهضة المصرية-.
٥٩- المقاييس البلاغية عند الجاحظ للدكتور فوزى السيد عبد ربه - ط : دار الثقافة للنشر والتوزيع ١٩٨٣ م .
٦٠- مقدمة ابن خلدون - ط : الازهرية ١٩٣٠ م .

٦١- من أسرار البلاغه فى القرآن الكريم للدكتور محمود السيد شيخون . ط : الكليات الأزهرية ، أولى ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م .
٦٢- منهاج البلغاء لحازم القرطاجنى - ط : تونس ١٩٦٦ م - .
٦٣- منهج الزمخشرى فى تفسير القرآن للدكتور الصاوى الجوينى - ط : دار المعارف بمصر ، ثانية ١٩٦٨م .
٦٤- نزهة الألباء فى طبقات الأدباء لابن الأنبارى - ط : القاهرة ١٢٩٤ هـ - .
٦٥- نظرية عبد القاهر فى النظم . د/ درويش الجندى - ط : الرساله . بيروت . لبنان .
٦٦- نظرية العلاقات أو النظم بين عبد القاهر والنقد العربى الحديث . د/ محمد نايل - ط : دار المنار بمصر ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩ م - .
٦٧- النكت للرمانى (ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن الكريم) . ط: دارالمعارف .
٦٨- نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز للرازى ت : د/ أحمد حجازى السقا . ط : المكتب الثقافى للنشر والتوزيع ، أولى ١٩٨٩م .